محمد كمال محمد

ايقاع المغيب

قصص مصرية

ايقاع المغيب

حين رفعت رأسها بعد وقت من اطراقتها ، كانت الحجرة خالية .. لم تسمع صوتا .. ولم تشعر بحركة .. أيقنت انه غادر البيت .. أثمة تواطؤ فى باطنه كان مضمرا منذ بدايات المحنة ؟ .. هل ابتدأت جذور الفرار ، يوم أعلنوا حقيقة مرضها ؟

كانت جالسة فى صالة الشقة تثبت له زرار قميصه .. جاء فوقف على رأسها يقول :

.. أريد ولدا يعيش ..

نظرت إلى وجهه .. أدركت ما وراء عبارته ..

السكين تمزع قلبها ..

« أولادك يموتون » .. سيقولها ..

بعدها سيكمل : « أريد زوجة تلد ولدا يكتب له الحياة » ..

انتفضت مطعونة .. هبط رأسها للأرض ذاهلة منكسرة .. دارت بها الدوامة : أهو عقاب بغير ذنب؟ أهو القصاص بدون جريمة ؟

قبلها بأيام .. بعد ما ودعت ولدها الأكبر وعادت إلى البيت مهدمة .. تكويها اللوعة والحسرة ويفريها الحزن وحرقة القلب ..

قال :

-لم يعد هناك داع للانجاب بعد الآن ..

فهمت ما يعنيه .. ظلت صامتة ..

ملأت اذنيها كلماته :

-ما نكاد نرى الولد فى عمر الصبا .. حتى يخطفه الموت .. فلماذا نعذب أنفسنا ..

كان ينوى بالتأكيد هجر فراشها .. توطئة لهجر البيت !

أحست أنها محاصرة فى عالم ضيق تحيطه قضبان من الوحشة والأسى .. واليأس والكآبة ..

عند فحص الدم منذ زمن عرفت أن ثمة شئ غريب مصابة به .. مأساوى هذا الشيء .. مجلب للعذاب !

قالوا لن يعيش لها أبناء ذكور بعد السادسة عشرة .. لطمت صدرها قبضة وحشية ..

فى السنة الثانية عشرة يزحف الخطر المتربص إلى الجسد .. ليسكنه أربع سنوات .. يحتل عضلاته واحدة وراء الأخرى .. يضمرها .. يميتها .. حتى يصل إلى عضلة القلب .. وتكون النهاية..

أصابها الهلع بعدما ذهب ولدها الأكبر ، حين انتبهت إلى أن الآخر الأصغر يجتاز بداية الثالثة عشرة .. عرفت أن المحنة الثانية بادئة ! .. تطل برأسها المخيف .. ليلحق بأخيه ..

ولدان يرحلان فى سنوات قليلة .. تنزف قلبها ..

عندما انتقلت من مكانها بعد مغادرة زوجها كانت تجر قدمين ثقيلتين كمن تزحف ..

كانت تود أن تواجهه بثورتها .. لكنها استشعرت فى نفسها ضعفا لا يعينها على المواجهة .. تمنت أن يداخلها شيء من الهدوء حتى يبارح الحجرة ..

ثمة رباط وثيق بينهما .. لم تتوقع انفصامه ..

ارتمت فى الفراش الذى سيخلو منه كالذبيحة ..

اشتعلت أعضاؤها حنقا ..

أغلق عليها باب الجحيم .. وذهب ليتجو بنفسه ! .. ضاق بواقع شديد التعاسة والسواد .. أرهقته مقاسمة العذاب معها .. انقلب عليها جاحدا .. ناذرا نفسه لعيش آخر .. يترك لها المكابدة لوحدها ..

تعيش فى قلب المعاناة بلا رفيق يساند ..

يلح عليها الألم ويزأر بكل قساوته .. لا تجد القدرة على التصدى والمجاهدة .. تبتليها المحنة بضراوة ..

هل تقوى على المنازعة .. والهم الجاثم يستغرق نهارها وليلها ؟

تساءلت ذاهلة جزعة ، كيف تخلى عن دوره الغريزى ليحقق لنفسه حياة أخرى ..

كم غردت لهما بلابل الحب زمانا !

لم يسع قلبها النقمة عليه .. لكنها احست الجرح نافذا غزير الدماء ..

داهمتها النوبة التى تعيش معها سنوات .. أطبق عليها ضيق التنفس الخانق والألم فى منطقة القلب والذراع والورك الأيسريين .. ثمة انسداد فى شرايين القلب ، قالوا إنه يلزمها جراحة لزرع شرايين جديدة بديلة .. حذروها من التأخير حتى لا تصاب عضلة القلب فيستحيل عندها إجراء الجراحة ..

لم تبال بما سيصيبها مع الزمن .. وهى فى حالة انتظار وترقب لما يقع لولدها الذى يتآكل أمام عينيها يوما بعد يوم ..

حجبتها المحنة عن نفسها .. وتركت نوبات الألم تفترسها .. والحالة تتفاقم ..

* * *

غاب ولم يعد ..

أهو الآن مع الزوجة التى ستجئ له بالولد ؟ .. أكان ثمة اتفاق سابق ؟!

عليها فحسب أن تعيش حالة الترقب يوما بعد آخر .. تتأمل ولدها بالخوف والقلق وارتقاب الفجيعة : تتقلص أجزاء جسده .. تتبعها

أجزاء أخرى .. يستحقها العذاب ..

لن تبحث لنفسها عن الحياة فيما يحرم ولدها الحياة .. لن ترغب في البقاء وهو يسير نحو الفناء ..

جاءها وهى تجلس فى سريرها ساهمة سارحة فى ليلة شتائية ، يداخلها فيها إحساس عارم بالوحدة والوحشة .. اشتهت النوم فلم تجده كأنما يروغ منها !.. نظرة استسلام وهاجس النهاية فى عينيه الوادعتين .. كأنه لا يرى أمامه ضوء الأمل ..

ـ هل سأموت مثل أخى ؟!

إرتج كيانها .. أصابها ما يشبه الذعر .. تهاوى قلبها فى صدرها .. فى ألم وحسرة تطلعت إلى وجهة الوسيم بملامحه الطيبة .. ألا تستطيع أن تحمل له شعاعا يجلى الضباب الكثيف ؟ .. شمعة تضيئها تتجه إليها عيناه .. ليطرح وراءه الظلام الكئيب ؟

ظلت صامتة .. أوجعها الصمت .. تمنت لو ترد بكلمة .. لكن بماذا ترد ؟ ليتها تستطيع ..

جهدت ألا تكشف ملامحها عن شىء .. أدارت وجهها تريد أن تبكى .. حبست فى صدرها صرخة تحمل حشدا من الألم والعذاب .. كأنها حوت عذاب وآلام كل البشر ! .. لمن تطلقها ؟! من يسمعها ؟!

تعيش المأساة بأبعادها الضارية !.. تضيق بقبضة الخوف والحصار النفسى الخانق وتنهك قواها .. تطلب لروحها المدد فى ظلمة اليأس والأسى والإحساس بالوحدة لتخلى الزوج عنها .. ووقوعها فى أسر المأساة .. ليعينها على الصبر .. يغنى نفسها .. يمتد طولا وعرضا مع رحلة الانتظار ..

غفت فى جلستها قليلا ذات عصر مجهدة .. ارتسمت أمامها صورة لعدد من المصلين فى صحن مسجد واسع : القائم والساجد والمكبر والمسبح .. يملأ سمعها التكبير عاليا مرتفعا يغطى كل شىء حولها .. يهزها ويشوقها إلى حضرة ربها .. عيناها على اتساعهما تحتضنان سجادة الصلاة التى هجرتها زمانا .. ذاب قلبها وحملتها أجنحة ..

تيقظت من الغفوة .. تركت دموعها تنهمر من مآقيها كنهر ..

من ساعتها بدأت تستقبل القبلة متوضئة خاشعة ..

حملت سجادة الصلاة لكل حجرة دخلتها ..

هل يأتيها المدد ؟

جوار فراش ولدها صلت كثيرا ..

هاجمتها النوبات أكثر من الأيام الماضية .. ازدادت حدتها .. تلقفها ألم الصدر بقسوة يلطم صداه الظهر بقسوة أشد .. لا تقوى على التقاط أنفاسها .. تتلاحق شهقاتها وهى تتلمس الهواء ، كأنما تشهق الشهقة الأخيرة !

لن تحرص على الوجود وولدها فى طريق العدم .. لن تنشد أن تكسب أياما تعيشها .. وثمة عزيز غال يخسر أيام العمر ساعة بساعة..

هل يمكن لها أن ترضى بالانغلاق على ذاتها ، دون التفاعل مع واقعها وان كان مريرا قاسيا !

لن تسعى لامتلاك الزمن والولد مجرد من امتلاكه .. لن تقفز لاستمرار الحياة وولدها بجوارها يستقبل النهاية .

تغرق فى الجو الداكن الخانق ، تعيش اليأس والوجع ونزف الجراح وانكسار الروح ..

تجلس بجوار ولدها فى فراشه .. تلتصق به .. تريد ان يلتحم جسدها بجسده ..

تقدم له الطعام .. تسأله ان كان يرغب فى صنف من الأكل تعده له .. ماذا يشتهى ؟

تقول له والدموع فى صدرها ، ألا يتوق الى الخروج للتنزه .. هل يستطيع ؟ .. ألم يوحشه الشارع الذى احتجب عنه طويلا ؟

يدخل الحمام واهنا ليستحم .. تقول له هل تدخل معه الحمام لتحممه بيديها .. تجيبها ابتسامة وضيئة حيية بلا ! تطلب اليه أن يترك الباب مواربا لتطمئن ! ..

تسرق النظر الى جسده العارى الضامر ساقطا فى قبضة الداء .. يبين لها انكماشه وتضاؤله . ليس لها إلا أن تعد الساعات الأخيرة .. تظل عيناها متعلقة به فى التياع تئن ضلوعها حسرة .. يبكى قلبها ..

تاقت نفسها لصوته المرتفع الذى كانت تضيق به وتنزعج له .. وتأمره أن يخفضه . لا تذكر انه اطاع مرة !

فى شغبه مع أخيه الذى ذهب ، كان صياحه يملأ اركان البيت .. تكاد تصرخ غاضبة .. يتشاحنان وينهكان قواها فى اسكاتهما . ولا يتوقفان حتى يجئ أبوهما من الخارج ..

ليس لها أن تنشغل بنفسها وإن كان الخطر محدقا .. لن يمكنها أن تغفل الانشغال بالعزيز مهما كان واقع حالها .. لا يجب ان تفصل الرغبة فى الحياة بغريزة حب البقاء ، عن الموت الذى يلتهم ولدها .. عليها أن ترصد فيه نقطة الفناء ومتوقفة عندها .. بغير مقارنة بين جحيم معاناتها بغدر الزوج ومرضها الذى ينذر بانسحاب قريب من الحياة ، والمسيرة المأساوية لولدها ..

هل تقوى على المغالبة ؟

صحا مبكرا ذات صباح ليقول لها بصوت كالأنين ورأسه على الوسادة ونظرة اشتياق تطل في عينيه :

ـ حلمت بمدرستي .. ألا يمكنني الذهاب إليها ؟ !

شئ يفرى كبدها .. الرغبة تنتقل الى قلبها ؟ .. تنغرس في كيانها ! تفقدها نفسها !

تمنت لو تصبح في التو خارج الزمان والمكان ، لتنفلت من وطأة عبارته !

أراحها بعد انهاك نفسي مضن ، أن تراه يدير لها ظهره ليرقد على جنبه الآخر .. كأنما اكتفى أن يعلن رغبته دون أن ينتظر ردا .. ! .. يبوح بإحساس واتاه دون أن يؤمل في شئ ... !

رأت ليلة عرسه في منامها .. سعيدا بعروسه منتشيا بجوارها على المنصة تحيطها الورود والزهور .. يشبك يده في يدها معانقا .. قبلته فرحة تدعو له بالسعادة والهناء .. شمت عطر عروسه وهي تعانقها وتقبلها وتوصيها بولدها .. شيعت العروسين حتى باب البيت سيستقبلان فيه حياتهما الجديدة .. اعترتها الدهشة : انه البيت الذى تسكنه ! .. تساءلت هل سيقيم وعروسه معها ؟ .. يقينا عز عليه أن يتركها وحيدة .. صحت مبتسمة .. لكن دموعها كانت تسيل على خديها ..

أليس ثمة رجاء أن يتحول الخراب الذى يجتاح حياتها الى عمار يطيب قلبها بمساكنته تتعزى عن رحيل ولدها الآخر قليلا ..

تحلم في نومها المتقطع المضطرب انها تحمل الكفن الأبيض بين يديها .. تجلس به عند باب قبر مفتوح !

زوجها الآن فى البيت الآخر هناك .. مع الولد المنتظر .. يريده مرافقا للحياة .. سيملأ حياته كما تمنى .. سيجد العزاء .. ستستغرقه حياة جديدة طيبة ..

أما هى فليس لها غير معاشرة الأيام المنذرة بالفجيعة المحتومة .. عنده الأمل .. فماذا عندها ؟

كانت تتساند على وجوده مع وطأة الفقد والتساقط .. هل تستطيع أن تحتمل ؟

ثمة سطور كتبتها منذ أيام له ، يوم أرسل صديقا ليحمل له أمتعته وأشياءه الخاصة .. كأنما ينذرها باستحالة العودة .. فهل سيقبل التضحية الصغيرة : يعيش التجربة التى ابتعد عنها ثانية .. يبقى فى جوار ولده الأيام المعدودات الباقية يرافقه إلى باب قبره دون وجودها .. فهى لن تعود إلى تلك اللحظات مرة ثانية ، لا تريد أن تراها ولا الدنيا كلها تريد أن تراها .. ستسبق إلى هناك ، لم يعد ثمة شئ قادم على الطريق غيرالعذابات مزيد من العذابات ، القت نظرة على الصبى النائم .. هل تبقت لها قدرة لترقب الأيام الباقية ! .. ثبتت نحو الجسد الضامرنظرة موادعة .. وداع يسبق زمن مفارقته الدنيا ! .. احتضنته بعينيها .. تزايلت فى وقفتها متصدعة البدن .. تشقق قبلها .. استبد بها الأسى الألم .. زفرت بحرقة .. سكون موحش انقبض له قلبها .. زلزل كيانها .. عصف بها اليأس .. ثقلت عليها وطأة المحنة .

لا تصدق انها باتت لوحدها .. تناهض وتواجه وتنافح وتغالب ما يحيط بها بضعفها وقلة حيلتها .

لم يعد فى وسعها انتظار النهاية ، لتذهب بعزيزها الى هناك !

بعد قليل .. قبل ان ينقضى النهار سيأتى ابوه كما وعد على لسان صديقه ..

هبطت سلم البيت فى اصرار .. وان كانت ساقاها تتخاذلان .. لم يعد لها مكان .. هاهى الساعة حانت لتذهب الى النهاية طائعة مختارة راغبة ! .. فلتعجل بالمغادرة لينتهى عذابها .. تسارعت خطواتها فى اصرار يتزايد ..

همت ان تستوقف سيارة اجرة، لكنها انتبهت الى انها لا تحمل كيس النقود ..

لم تعد الي البيت .. طويلة المسافة ، لكنها ستقطعها سيرا على قدميها ..

هناك من ينتظرها الآن .. بعدما أصرت فى استماتة .. على المخاطرة « ـ ليست هذه شجاعة !.. انك تخاطرين ! .. القلب الآن لا يحتمل .. فات وقت الجراحة .. جئت متأخرة .. »

« ـ أعرف ! .. لا اطلب غير الراحة .. »

لم يفهم الطبيب ! لكنه حدد الموعد !

لمحت فى سيرها صديق ولدها فى الجانب الآخر من الشارع ، أدارت وجهها ، وأسرعت فى السير حتى لا يلحق بها ويسألها عنه ..

تحجرت فى عينيها الدموع ..

الطريق المنور أمامها يكتنفه الظلام .. استمرت تذرعه .. تشعر كان سيرها تحول الى ركض لاهث يتعجل النهاية .. لا يجب أن تتوه قدميها .

لم يعد على الموعد المحدد غير ساعة .. بالكاد يستغرقها الطريق ..

الجموح والانطفاء

كنت خارجا من الزقاق لأنعطف يمينا فى طريقى .. عندما أمسكت يد بذراعى لأتوقف عند المقهى الصغير ..

بدهشة حملقت فى الوجه المبتسم ، والوميض البادى فى العينين الغائرتين :

– ألا تعرفنى ؟

حدقت فى الملامح المنكسرة برهة .. وتمتمت فيما يشبه الهمس بالاسم ..

ارتسم الارتياح على الوجه المتغضن :

– تذكرتنى ؟

فيما عبرت بى لحظة اندهاش أن عرفته بهيئته الجديدة عبر ضباب السنوات . جذب ذراعى فى رفق بيده التى لا تزال ممسكة بى :

– هل نجلس معا قليلا ؟

بدا كأن نبرات صوته تتوسلنى !

كان ثمة كرسى قديم من القش على باب المقهى . ترك ذراعى وسحب الكرسى إلى جوار المنضدة الصغيرة لأجلس !

– أنت الوحيد الذى أقابله ممن كنت أعرفهم !

فوق المنضدة كان كوب الشاى لم يتناوله ..

طلب لى شايا وسألنى :

– أم تريد قهوة ؟

بينما رحت أتأمل وجهه فى فضول تزحف بى الذاكرة للسنوات تبسم يقول :

– الا تزال تسكن هذا الزقاق ..

هز رأسه يغمغم كأنما لنفسه :

ـ قليلا ما تتغير ظروف حياتنا .. وكثيرا أيضا !

التفت إلى فى مودة :

ـ حملتك خلفى على الدراجة ذات ليلة .. وأوصلتك إلى البيت .. هل تذكر ؟

تمتمت فيما أعبر الزمان :

ـ منذ سنوات بعيدة .. أتذكر ..

ـ كنت صبيا وديعا .. ملائكى الوجه ..

بدا صوته كأنما يتلقفنى ليعيدنى إلى ازمان قديمة ..

كان الشعر الذى عرفته فى صباى أصفر ناعما طويلا يتهدل على الكتفين القويتين ، أبيض الآن .. وبدا الوجه الضاحك متعبا آسيا ..

غامت عيناى عن رؤيته أعيش لحظات صباى ... دكان قطع غيار الدراجات .. خلف طاولة صغيرة أجلس أقيد المبيعات واقبض النقود وأرد البواقى لأصاحبها فى حرص وتهيب ..

كان « عبد البر » يتخصص فى تجميع قطع الدراجات الجديدة وتركيبها للزبائن فى مهارة .. يتمتع برضا « الحاج» صاحب الدكان الذى قبل خطبته لابنته الوحيدة . يناديه الكل : «ليمو» لخفة ظله ونشاطه ومرحه .. بينما كان «حندس» الشاب الحافى القدمين المتسختين دائما كأنما لا تريان الماء ! .. يقوم بتأجير الدراجات وقبض النقود وتسليمها لأضعها فى درج الطاولة ، أضيفها لايراد المبيعات وأقيدها فى كراسة القيد .. فى نهاية اليوم كان على حندس مهمة تنظيف الدراجات وغسلها بالكيروسين .. فيما يتولى عبد البر تعليقها بيديه القويتين على الحوامل الحديدية قرب السقف ..

ـ اتذكر غداءنا اليومى مع « الحاج» ؟ .. نتجمع نحن الأربعة حول

الطاولة نأكل المش المخلوط بالطحينة وقطع الطماطم .. كانت الأكلة شهية مع أنها كانت يومية لا تتغير !

هز رأسه ..

- « الحاج » كان بخيلا فى كل شىء .. حتى فى ملبسه .. القميص القديم والبنطلون الأجرب لا يتغيران .. والطربوش الباهت ..

تنهد :

- ليتها دامت تلك الأيام .. مع جفاف الرزق !

نبهتنى عبارته لأساله ما حاله الآن ؟

أطلت بين عينيه نظرة منكسرة دون أن يتكلم ..

كان ينتهى من تركيب دراجة جديدة فيضعها فى مدخل الدكان لامعة براقة فى انتظار صاحبها .. ويسرع بالقفز فوق دراجة قديمة يعدو بها فى الطريق يتطاير شعر رأسه خلفه .. يغيب وقتا ويعود متهلل الوجه مبتسم العينين .. أدرك بالحدس أنه كان فى لقاء مع خطيبته فى مدخل بيتهم ، كما رأيتهما صدفة فى أحدى المرات ..

يركن الدراجة على رصيف الدكان ويستدير ليتدخل فى مشادة بين حندس وزبون يناكفه فى دفع باقى أجرة الدراجة التى تأخرت معه عن موعد تسليمها .. يزجر الزبون آمرا :

- أعطه ..

يماطل الزبون فيلكمه لكمتين خاطفتين

- روح .. أخذنا حقنا !

يبدى « الحاج » اعتراضه :

- نخسر بهذه الطريقة !

يؤكد عبد البر :

- لن يدفع فليس معه نقود .. أعرف هذه النوعية !

يصمت الحاج في غير اقتناع ..

يحلو لبولس المعايرجي صاحب ورشة الموازين الملاصقة ، الذى يرقب الموقف بطريقته الفضولية ، التعارك ممازحة مع عبد البر .. متوعدا بالتغلب عليه أمام الناس ، ليقص شعره الطويل الذى يتباهى به ! :

ـ بولس هنا ياليمو ! .. أرنى قوتك ياليمو !

يقف أمام ورشته متحفزا مظهرا تحديه .. يخلع طربوشه الطويل في حركة سريعة ، مطوحا به داخل الورشة .. يستدير إلى عبد البر فاردا ذراعيه ليتلقفه مرددا :

ـ أرنى قوتك ياليمو !

كنا نقف متلهفين لبدء التعارك ، لنبتهج بالمشاهدة ولنخرج لبعض الوقت من رتابة العمل وملله !

يتلقف بولس عبد البر مرحبا .. يطوق كل منهما بذراعيه خصر الآخر بقوة ، محاولا اقتلاعه من الأرض المتشبث بها ، والقائه فوقها ليعلن انتصاره .. يقف «الحاج» وسط باب الدكان يرقب ما يدور مبتسما معجبا بعبد البر .. فيما يتوقف بعض المارة للتفرج مترقبين تغلب أحد المتعاركين على صاحبه .. عندما تطول المعركة ، دون أن يحقق أحدهما انتصارا ، يصفق «الحاج» معلنا إنهاءها ضاحكا ..

يفترق الرجلين لاهثين يفتر ثغر كل منهما عن ابتسامة طيبة .. يسوى عبد البر شعره المنسدل على جبينه .. يخرج بولس له لسانه لاغاظته ويضحك ..

يقول « الحاج » لعبد البر مبتسما عند دخوله الدكان أنه كثيرا فى شبابه كان يتعارك هكذا مع الآخرين ، محققا انتصارا فى معظم المرات ! .. يوصى عبد البر بالتوقف عن تلك المعارك كيلا يؤثر ذلك

على دخل الدكان !

-- تزوجت بنت الحاج .. وأسكننى فى شقة صغيرة كان يحتجزها لزواج أبنته .. كان ذلك قبل وفاته بعدة شهور ..

صمت عبد البر برهة ثم قال :

ـ باعت زوجته الدكان .. وسددت الديون .. واحتجزت نصيبها لتنفقه على مرضها المزمن .. ظللت شهورا بغير عمل .. فالمدينة صغيرة ضئيلة الفرص .. حتى جاءت ابنتنا فى ولادة متعسرة .. وزادت المسئولية .. قررت ترك المدينة والسفر إلى القاهرة لعلى أجد عملا مناسبا .. عارضت زوجتى وأعطتنى ما تبقى من نصيبها فى الميراث لأفتح دكانا لتأجير الدراجات .. لكننى فضلت شراء سيارة نصف نقل مستعملة .. زودتها بصندوق خشبى مغلق دهنته باللون الأخضر تفاؤلا .. لاستثمار السيارة بطريقة مضمونة الدخل .. اتفقت مع مكتب البريد فى المدينة لنقل البريد إلى محطة القطارات واحضار البريد الوارد .. رافقنى فى المهمة أحد موظفى المكتب ..

أطرق طويلا فى صمت .. بدا أنه يريد التوقف عن الحديث . بعد وقت رفع رأسه مستأنفا :

ـ بعد أيام قليلة حين توطدت علاقتى بالموظف .. بدأ محاولاته معى لكى نستولى على الحوالات البريدية ذات المبالغ الكبيرة ، والنقود الورقية التى يرسلها أصحابها داخل الخطابات .

انزعجت للفكرة واستهولتها .. قاومت طويلا .. لكنه ظل يحاول اغوائى بطريقته .. يصور لى بساطة ما نقوم به مؤكدا .. وما سنجنيه من ورائه .. حتى راقت لى الفكرة أخيرا واقتنعت بها .. بل وجدتنى اتحمس لها .. وبدأت معه فى تنفيذها ..

التفت إلى :

ـ لماذا احكى لك ! .. اننى لم احك شيئا من قبل لأحد ..

أومأت له فى مودة :

ـ يريحك ان تتكلم .. انى أسمع لك !

حملق أمامه برهة .. عاد يحكى :

ـ كنا نقف بالسيارة على جانب الطريق قرب محطة السكة الحديد فى الذهاب لنفض اظرف الخطابات المسافرة .. وفى العودة أيضا نفعل نفس الشىء فى البريد الوارد للمدينة .. وكانت الحصيلة اليومية تغرى بالإستمرار !.. حتى نقل الموظف فجاة وحل محله آخر .. بعد أن تقربت منه حاولت الإتفاق معه ، لنسير على نفس المنوال السابق .. ابدى انزعاجا شديدا ورفضا قاطعا .. زينت له الفكرة ورحت أقنعه بأن الأمور أبسط مما يتصور وإنه لا مبرر للخوف .. فسوف تسير الأمور مسيرا طبيعيا ونجنى الفائدة !

استمع إلى فى صمت .. واستمهلنى يومين ليفكر قبل أن يتخذ القرار ..

فى اليوم الثالث بينما كنا نفض أظرف الخطابات داخل السيارة .. داهمتنا الشرطة .. لتطبق على متلبسا ..

فى لحظة ذهول وفزع ، وجدتنى دون وعى أسدد الطعنات بفتاحة الخطابات إلى وجه الواشى ورقبته .. وانتابتنى حالة هياج شديد أخذت معها أضرب رأسى بجدار السيارة ، حتى أمسكوا بى وجرونى خارج السيارة أقاوم بكل قواى .. لحظات شيطانية لا تفارق خيالى .

بدا تائها فى غابة كثيفة مظلمة متشابكة الأشجار .. وكنت تائها معه إشفاقا وعطفا ..

ـ وأنا رهن المحاكمة عرفت أن الرجل أصيب بالشلل الناجم عن الإصابات الشديدة .. تضاعفت الجريمة ..

كانت زوجتى قد باعت السيارة لتدفع أتعاب المحامى .. ولتنفق

على نفسها وابنتنا ..
أطرق وصمت ..
رفع رأسه ينظر أمامه عائدا من رحلته :
ـ سنوات طويلة عشتها داخل السجن .. خرجت لأجد المدينة الصغيرة اتسعت كثيرا .. العمائر العالية والشوارع الجديدة المرصوفة .. الميادين الواسعة يتوسطها النافورات .. تحسرت لبعدى زمانا عن هذا كله .. سيارات الأجرة تجرى لأول مرة فى الشوارع الجديدة والقديمة .. تخيلتنى متمنيا أقود واحدة منها .. ساعيا للرزق الحلال .. انفق منه على الزوجة والإبنة اللتين لم إجدهما .. والشقة سكنها آخرون .. ذهبت إلى حيث لا أدرى ..
رنوت إليه متعاطفا :
ـ هل بحثت عنهما ؟
بدا مستكينا يائسا :
ـ أين أبحث ؟ .. أنا لا أعرف ان كانتا لا تزالا فى المدينة أم تركاها .. ليست لدى القوة التى تعيننى فى طريق البحث الذى لا أدرى إلى متى سيطول ..
حنى رأسه فى أسى ..
ـ حرمت من صحبة رضية هائئة مخلصة ..
من جديد تأملت الشعر الأبيض والوجه المتعب ..
ظل صامتا يحدق بين قدميه .. فجأة نظرا إلى وجهى :
ـ هل تجد غرابة أن أظل اتذكرك طوال ذلك الزمان مع فارق السن بيننا .. وأيضا لانك لم تبق معنا فى العمل كثيرا .. ؟
ـ كانت بيننا صداقة .. أذكر مواقفها .. هل تذكر كيف بدأت ؟
ـ لم تدم طويلا .. فقد تركتنا ولم أعد أراك .. وكلما حاولت أن أعرف أخبارك شغلتنى الدنيا ..

ـ لكنى لم أنسها ..
هز رأسه وسكت كأنما ليترك لى لحظات التذكر ..
ذلك كان ليلة أن كان « الحاج » يتسلم منى إيراد مبيعات اليوم ، وقال ان هناك نقصا فى النقود ..
تدخل عبد البر وفى عينيه نظرة تعاطف يقول :
ـ راجع جيدا ياحاج ..
ـ راجعت وتأكدت ..
ـ كم المبلغ ؟
ـ عشرة جنيهات ..
رمقنى عبد البر بنظرة شك آلمتنى .. لكنه أسرع يوجه كلامه إلى « الحاج » :
ـ لا أظنه يجرؤ على السرقة ..
خاطبنى الحاج بحدة :
ـ أنت المسئول عن العهدة ..
ادركت ما يعنيه .. ورأيت نظرة الاتهام ..
تملكنى الغضب فنهضت محتجا واندفعت خارجا .. بينما يزعق «الحاج» خلفى :
ـ ولد !
وسمعت صوت عبد البر يقول كأنما يتشفع :
ـ دعه الآن ياحاج ..
فى الصباح قابلنى عبد البر قرب الزقاق يركب دراجة .. نظر إلى وجهى بدهشة :
ـ ما هذا الورم فى وجهك ؟
لم اكن قد رأيت وجهى فى المرآة ، لتعجلى الخروج إلى الصيدلية

لشراء الدواء لأمى ..

ضحك عبد البر وقال مازحا :

ـ وجهك يشبه وجه «ميشلان» المرسوم على كاوتشوك السيارات !

كنت لاازال غاضبا لموقف الأمس فلم أبتسم لمزحته .

قال :

ـ أركب خلفى لنذهب إلى الدكان ..

قلت فى اصرار :

ـ لن أعود إلى الدكان ..

ـ لا تكن عبيطا .. لقد عرفت من الذى أخذ النقود .

بلهفة سألت :

ـ من ؟

ـ من يكون غير واحد منا .. انه حندس الملعون !

دمدمت مغيظا :

ـ مد يده فى الدرج ولم أره .. اللص !

ـ طرده الحاج وطارده فى الشارع بيد المقشة !

ابتسم :

ـ لم ينم الحاج ليلة أمس حزنا على العشرة جنيهات .. هل تتصور اننى كنت سأشك فيك فى بداية الأمر ؟! .. لكننى قرأت فى وجهك براءتك فى نفس اللحظة ..

اضاف :

ـ ظللت استدرج حندس لشكى فيه حتى أقر بالسرقة .. عليك بعد هذه المرة أن تكون يقظا !

عندما خرجت من الزقاق بعد أن تركت الدواء لأمى .. كان عبد البر يقف فى انتظارى بالدراجة ..

ركبت خلفه مدمدما :

ــ لولا الضرورة ما رجعت !

ــ أحيانا تلجئنا الضرورة إلى مالا نحب !

وكأن عبارتى نبهته لشىء فسألنى :

ــ أليس لك أخوة ؟

ــ كلا ..

ــ لمن كان الدواء ؟

ــ لأمى .. انى وحيدها ..

ــ أبوك ميت أعرف .. من أين تعيشان ؟ .. هل تكفى الجنيهات الثلاثة التى تقبضها من الدكان ؟ .. سأكلم «الحاج» ليزيدها .. ولو أن الأمل ضعيف !

ــ لن استمر فى الدكان .. سأعود إلى مدرستى لأواصل تعليمى ..

ــ لكن كيف ! .. ستحرم من الراتب ..

هزتنى نبرة الاشفاق .. قلت :

ــ سندبر أمورنا !

نشأت من يومها صداقتنا ..

أردت أن اتحدث إليه .. لكنى لم أجد كلاما والقلب مثقل بالأسى ..

احسستنى أغوص فى وسط الظلمة التى تحيط به من كل جانب .. وسنواته بما حوت من كارثية دمرت نفسه ..

تملكتنى حيرة اليمة .. كيف تولد الشر ؟ من أين أتى الجموح الهائج ؟ من الملوم ؟ أى ذنب ثقيل يحمله ؟ اية نوازع خبيثة تلبسته فانصاع لها ..

شاخ وتهدل .. ولم يتعد طور الكهولة بعد ..

ماذا يمكن ان أفعل ؟ سألت نفسي ونهشني الألم ..

كانت المشاعر في داخلي غاضبة لائمة ، حاولت مداراتها لكي لا تسقط من فمي كلمة تزيد من شقائه وتعاسته ويأسه .. لكني كذلك لم أستطع أن اسمعه كلمات لاخفف عنه ولو قليلا ..

ربما كان الشعور بالاشمئزاز مما ارتكبه ما حملني على الصمت ، بينما يتكلم دون أن انتبه لكلامه .. على أن ذلك الشعور تزايل ليحل محله الاشفاق والعطف من جديد ، عندما شدني تأمل وجهه الغائر الوجنتين البارز العظام .. وفمه الذى اتسع كثيرا ليعبر عن شقاء وهم بلا حدود ..

جاهدت حتى لا تزيغ أفكارى وتجنح بى الرؤى لاستعيد فى مخيلتى ملامحه القديمة ورنين صوته .. ولم أستطع أن أمنع نفسى من الحزن على روح كانت وديعة فياضة بالحنان والرفق .. نعمت فى جوارها بالأمان لفترة من العمر ، وإن كانت قصيرة !

وليس أمامى الآن إلا إنسانا تجسدت فيه المرارة والاكتئاب وانكسار القلب .. يكتنفه الخراب الروحى ، بلا أمل فى استعادة الأمن النفسى المفقود ..

أى زمن قادم يترصده ؟

ـ اسكن حجرة فوق سطح أحد البيوت القديمة .. سأعطيك العنوان لتزورنى .. إذا أردت ..

كان صوته خاليا من الحياة .. وليس ثمة من يستطيع أن يعيد إليه الحياة التى تفارقه ..

بينما أخذ يمليني عنوان حجرته ، شحب وجهه فجأة .. فتح فمه يلتقط الهواء ..

بصوت متقطع غمغم بعد فترة :

ـ نوبات الربو .. تأتينى كثيرا .. خاصة أثناء الليل .. هواء الحجرة الضيقة يزيد من الأزمة ..

اخرج منديلا كالحا من جيب بنطلونه الحائل اللون .. مسح قطرات العرق التى نبتت على جبهته .. وكانت يده ترتعش ..

تأملت فى ألم ملامحه المتهالكة .. هل يقوى من جديد على مطاحنة الحياة لأجل الرغيف ؟ .. هل يقدر على ملاطمة الدنيا موثق اليدين والقدمين ؟

ظل ساكتا ينكس رأسه ، ويرفعها ينظر إلى الفراغ ساهما .. كانما يتذكر أزمانا باتت بعيدة ..

قلت :

ـ اعيش فى بيت الزقاق وحيدا ... اشغل وظيفة صغيرة هل تشاركنى المعيشة ؟

نظر إلى فى صمت يحمل معان كثيرة ... وضع سبابته تحت شفته السفلى دون كلمة . احسسته ينظر داخل ذاته ... لم تعد هناك اللهفة على شىء .. ولا الأمل فى شىء ...

حول إلىَّ عينيه فى نظرة تقول : ـ إلى متى ؟

ابتسمت مرحبا بدعوة حارة ... أدار وجهه .. بعد لحظة قال دون أن ينظر نحوى :

ـ سأجئ ..

انتظرته طويلا ...

قال جار حجرة السطح :

ـ من زمن لم أسمعه يفتح الباب ... ولم أحس بحركة فى الحجرة .. هل أنت صديق ؟

القى بالصحيفة من يده .. وابتسم آسفا ..

خلت صفحة الوفيات من التعازى فى رحيل المحافظ الأسبق .. فلم يعد هناك داع ، بعدما رحل الذى كانوا بالأمس يحنون له الرؤوس تزلفا ونفاقا !

اتسعت ابتسامته لنفسه .. تلك الليلة التى لم تبعد زمانا طويلا تمثل أمامه ..

يومها كان قد ذهب فى الظهر لزيارة صديقه الكاتب الصحفى المعروف ، فى جريدة الطريق .. تهلل وجهه حين رآه ، وبادر يقدمه لمجموعة الشباب الذين يملأون مكتبه :

ـ الأستاذ خالد مراد الكاتب فى جريدة الطريق ..

نهض الجميع يحيونه فى احترام كبير ، فيما كان ينظر إلى صديقه دهشا .. فهو لم يكتب حرفا واحدا فى «الطريق» ولم يعمل بها يوما من الأيام !

عاجله صديقه بقوله عندما جلس بين الحاضرين :

ـ الأصدقاء جاؤوا من محافظة « ...... » بتكليف من محافظها ، يدعوننى للمشاركة فى حفل تكريم الراحل « ...... » أحد رواد التنوير بمناسبة ذكرى مولده ، باعتباره من أبناء المحافظة ..

أضاف :

ـ ستذهب معهم فى السيارة التى تنتظر فى الخارج .. وسألحق بكم بعد فراغى من عمل هام .. ومعى مصور الجريدة ..

لم يدع له فرصة ليعتذر عن تلك المهمة المباغتة التى لم يعد نفسه لها .

عندما أسر إلى صديقه وهو يشيعه خارج مكتبه ، انه لا يجيد التحدث فى الاجتماعات ، وغير مهيأ للكلام عن الراحل الذى كان ينبغى أن يعد نفسه للتكلم عنه .. بادره بقوله ، انه لن يتكلم إلا إذا رغب هو نفسه .. وله أن يلزم الصمت مكتفيا بالجلوس بين الحاضرين فى الحفل دون المشاركة فيه !

وجد نفسه فى سيارة «الميني باص» التى انطلقت به للطريق الزراعى ..

تساقط المطر ثقيلا فأبطأت السيارة فى السير .. ومضى الجميع يتحدثون ويثرثرون لقطع الوقت .. بينما ظل فى صمته .. يلازمه القلق متوجسا أن يتخلف صديقه عن اللحاق به !

فجأة انتبه إلى شيء يمسك به .. كان الكتاب الثقافى الذى قرأه ليلة أمس وذهب يحمله إلى صديقه ليحثه على قراءته .. وأنسته المفاجأة أن يعطيه له !

وضع الكتاب بجانبه .. وعاوده القلق !

نظر خلسة إلى وجوههم .. كانت عيناه تلتقى بعيونهم فيجد الفرحة بوجوده بينهم .. كأنه كنز ثمين ظفروا به !.. وزاد قلقه ! عندما دخلت السيارة المدينة رأى من البعيد أضواء تتلألأ من عناقيد اللمبات الكهربية التى امتدت على واجهة مبنى عال .. عرف أنه مبنى المحافظة ..

توقفت السيارة أمام المبنى بعد مسيرة ساعات طويلة لسقوط المطر ..

طلبوا إليه فى احترام شديد أن يتفضل بالنزول وسبقه بعضهم ... نزل ناسيا أن يأخذ الكتاب ..

غابوا داخل المبنى وعادوا بعد قليل ..

رأى حركة غير عادية تحدث فى مدخل المبنى الواسع .. ووجد نفسه أمام المحافظ الذى التف حوله جمع من رجاله ومعاونيه .. بينما كان يقف على الرصيف الواسع حشد يرفعون ايديهم إلى جانب رؤوسهم يعظمون المحافظ ..

رحب به المحافظ مصافحا .. ودعاه للركوب إلى جواره فى السيارة الفخمة ..

بدأت السيارة تقطع الطريق .. وخلفها ثلاث سيارات مليئة بركابها ..

كانت أضواء الطريق الذى اخترقته السيارة فى المدينة عالية .. لكنها بدت خابية فى عينيه .. فهو لم يحسب حسابا لهذا كله ! .. بعد مسافة انحدرت إلى طريق مواز للسكة الحديد، وتحولت إلى طريق ضيق دخلت فى نهايته إلى قرية تجمع فى مدخلها حشد كثير من الفلاحين ..

مرت السيارة ببيت ذو طابق واحد .. تعلق على واجهته حبال لمبات الكهرباء ..

عرف أنه بيت الذى جاؤوا لتكريمه ..

أحس بالرضا .. فثمة من يعرف قدر النابهين ، يحرص على أحياء ذكراهم وفاء وعرفانا وامتنانا لما قدموه لوطنهم .. وتذكرة للأجيال بهم ..

تزايد احساسه بالرضا ، عندما طالعته من البعيد أضواء السرادق الكبير الذى اقيم للاحتفال ..

هبط المحافظ من السيارة .. وهبط خلفه ..

كان ثمة عدد من العساكر يركبون الخيل يقيمون حاجزا فى وجوه

الفلاحين الذين تجمعوا يريدون دخول السرادق ..

كان بعضهم يحاولون المرور من بين الحشد للظفر بالدخول .. فينهال المخبرون السريون على ظهورهم بالخيزرانات فيتراجعون .. ورأى اللهفة والتمنى على الوجوه ..

غاصت قدماه فى الأبسطة اللينة التى تغطى أرض السرادق .. ودار بعينيه فى المقاعد المكسوة بالقطيفة الحمراء .. ومشى مسافة طويلة فى جوار المحافظ حتى نهاية السرادق أمام خشبة المسرح ..

جلس فى الصف الأول بجوار المحافظ .. وكان مأزوما يستشعر الحرج والتوتر .. ولم يفهم ازاء الموقف كيف سيظل صامتا لا يشارك بكلمة ، فيما لو لم يحضر صديقه المدعو أصلا للمشاركة !

هل خدعه الصديق ؟!

صعد أحدهم خشبة المسرح ووقف متأنقا أمام مكبر الصوت ، وانهالت من فمه كلمات الترحيب بالمحافظ والمدح والثناء لتفضله بالحضور وتشريفه الحفل !

توقف وقال :

ـ والآن فليتفضل الأستاذ خالد مراد الكاتب فى جريدة الطريق ليلقى كلمته !

كأن لطمة أصابت رأسه .. ارتج بدنه وتخلخلت أعضاؤه .. أهكذا سريعا !.. أول المتحدثين هو برغمه ! ود لو غاص من تحته المقعد ليغيب عن العيون ! اى ورطة هذه ! أى شرك أوقع نفسه فيه .. اية مجاملة لعينة قبل أن يؤديها لصديقه ! احس أنه محاصر كفأر فى مصيدة !

مضت لحظات .. التفت إليه المحافظ مبتسما يحثه على النهوض !

عاد صوت الرجل يدعوه .. خيل إليه أن الحاضرين يرصدون من

الخلف كأن الجميع يعرفونه !

كيف زج بنفسه وأقحمها في تجربة لم يخض مثلها قبلا دون الاعداد لها ؟

نهض وسط التصفيق المدوي من مئات الحاضرين .. صعد إلى خشبة المسرح مضعضع الحواس .. ينقل قدمين متخاذلين ..

وقف أمام مكبر الصوت متلجما محتبس الصوت .. لا يدري ماذا يقول ..

كان العرق يدب في جسده رغم برودة الجو .. أحسه كنمل زاحف فوق جلده ... بنظرة متراجعة شملت السرادق الكبير ، رأى العيون كلها متطلعة .. والآذان مشرعة مترقبة ..

لا مهرب !

ظل مصلوبا أمام مكبر الصوت لا ينطق .. !

حين وجد صوته يغادر حلقه أخيرا .. تكلم عن الحضارة .. انها حضارة العقول .. وليست حضارة الحجارة ! .. نحن نزهو بأبي الهول والأهرامات .. وآثار الفراعنة والمومياءات .. فهل تلك هي حضارتنا وحسب .. نحن نقتنع عن سوء فهم وخطأ تقدير لحقيقة وجودنا ، بحضارتنا القديمة .. فهل نظل في الصفوف الخلفية للحضارة الحديثة؟!

لنتحرر من التجاهل والقهر الذي يقهر الابداع .. كفانا هجرة الكفاءات العلمية وترك الوطن يأسا وخيبة .. كفانا نزف الأدمغة من بلادنا .. نحن ياسادة نتطلع إلى وثبة حضارية حقيقية نباهي بها العصر .. وثبة العقول التي يجب أن نطلق سراحها بعد الاعتقال الطويل .. لتبدع وتنتج في شتى المجالات .. لنلحق بحضارات الأمم التي نحسدها عليها ونتمناها لأنفسنا ، ونكتفي بالتمني .. لنحقق الحياة

الراقية المرتجاة والمجد المأمول .. وفروا لها امكانات البحث العلمى المطمورة زمنا .. حتى لا نبقى أمام العالم ضعافا مخذولين .. حتى نلحق بركب التقدم الذى تخلفنا عنه زمانا ..

وشعر بقوة تنساب فى صوته حين انتقل ليتحدث عن الرجل الذى جاؤوا لتكريمه .. انها مناسبة جليلة هذه التى نحيى فيها بمحبة واجلال وترحيب وسعادة ذكرى رجل أيقظ الوعى بفكره الناهض واستنهض روح الأمة بنزعته الإحيائية ..

حيا القرية التى أنجبت الراحل المحتفى به .. الذى لاتزال تشرق شمسه على الوطن كواحد من رواد الليبرالية فى وطننا بجوهرها الفلسفى .. وهو الاعلاء من الحرية الإنسانية .. وصنع الحضارة والارادة والنهضة والثورة على الموروثات القديمة . وأخيرا فهو صاحب شعار مصر للمصريين ..

كامل التقدير وعظيم الامتنان لهذه القرية التى نقف الليلة على أرضها الطيبة ... اننا ندين لها بما لا قبل لنا على رده من آيات الفضل والكرم ... إن من حق محافظة (....) أن تفخر على مدى الزمان بابن نابغة من أبنائها ... وشكرا لكم ..

غادر مكبر الصوت .. فيما احس بالحمل الثقيل ينزاح عن صدره .. ادهشه انه لم يسمع تصفيقا ، ولم تطرق اذناه كلمة استحسان ..

هبط من فوق الخشبة شاعرا بالحرج متعجبا للصمت الشامل الذى يقابله كأنما ثمة مؤامرة للتجاهل !

عندما اقترب من مقعده ألفاه مشغولا بغيره .. جذب أحدهم طرف كمه كمن يلطمه ، مشير الى مقعد خال فى آخر الصف ..

بينما استشعر نظرات الدهشة والاستنكار ترمقه .. وأخرى بالغضب والاحتجاج ..

لم يدرك انه تجاوز الصورة التى رسموها له ، وخالف ما كان منتظرا .. وعليه الآن أن يواجه ما لم يتوقع .. الا عندما صعد أحدهم خشبة المسرح واحتوى بحماس ظاهر فى يده مكبر الصوت .. وراح يكيل الترحيب بالمحافظ ويشيد بشخصه المتفرد وبقيمته المتميزة ! ومكانته ومنزلته فى قلوب أبناء المحافظة :

أدهشه وأثار تعجبه أن الرجل لم يشر بكلمة واحدة الى الشخص الذين جاؤوا لتكريمه واقيم الحفل باسمه .. هذا اذن ما أرادوه منه .. لكنه خيب ظنهم !

تعاقب المتحدثون كل يرحب بالمحافظ فى تبجيل واحترام وتوقير مع الدعاء له ـ باداء مسرحى بدا انهم مدربون عليه جيدا ـ بدوام الصحة وطول العمر ، وأن يحفظه الله راعيا لأبناء المحافظة !

ماج صدره باضطرابات تثقل على أنفاسه .

صعد آخر وبدأ كلمته بقوله : « السيد اللواء الوزير المحافظ » ... وقدم له الشكر والامتنان باسم الحفل الكريم الذى شرفه وشرفت القرية ، صغيرها وكبيرها ـ بحضوره ! وراح يكيل المدائح فى عشرات الكلمات ..

خيل إليه ان المتحدث سيقفز من مكانه ليوسع يد المحافظ تقبيلا .. مظاهرة من الكذب والنفاق والخداع .. والكلمات الفجة ..

تململ فى مقعده .. خاف أن تقع عيناه رغم البعد فى عينى المحافظ فيصطدم بما لا تحتمله أعصابه !

تلتقط أذناه كلمات الإشادة ، بينما تلفه الدوامة ..

يتململ ، لكنه يأمل فى سماع كلمات عن الرجل الذين جاؤوا من اجله .. كأن مظاهر التكريم التى تحالفوا لها هى الحفاوة بالمحافظ .. لا يرون غير وجهه الذى يتيه فخرا ..

كـانوا يريدونه بوقـا لنفـاقـهم .. لكنه خـرج عن الخط فنبـذوه وعادوه ! .

ود لو تختطفه يد تلقى به خارج السرادق الذى لا يستطيع مغادرته تحرجا ... ترى هل كان صديقه يعرف سلفا ماذا سيحدث فآثر الهروب ؟

كـان أحدهم يروح ويجيء بين صـفـوف المـقـاعـد .. عـيناه على الجالسين فى اليمين واليسار .. وتستقر نحوه نظرة غامضة يحدجه بها .. وسترته مفتوحة عن سلاح يتدلى من خاصرته ..

تسلل الخوف الى نفسه .

تتابعث كلمات الاشادة والمديح ... أنشد أحدهم قصيدة طويلة رفع فيها المحافظ الى السماء .. ألقى آخر زجلا تخلله اسم المحافظ مرات وردد فيه شعارات الامتنان والعرفان .. وانها ه يحسد اهالى المحافظة على حظهم الكبير الموفور باختياره محافظا لهم !

تاه اسم «المكرم» فى ضجة الزحام !..غاب شخصه وراء ستار مهزلة التجاهل لصالح حاكم المحافظة ! .. حجبت ذكرى حامل النهضة الفكرية فى زفة الاحتفائية بالمحافظ ..

عاد يتململ فى جلسته يخزه نصل مؤلم ..

أثار حنقه التزلف لحد الهوان ، والانحناء حتى تلامس الجباه الأرض !

لوحة بالغة الاتقان رسمها المتحدثون جميعا بموهبة يحسدهم عليها شيوخ النفاق فى كل العصور !

أهى جمهورية صغيرة يتسيدها المحافظ رئيسا ؟!

أهى ولاية يحكمها مملوك يرضخ له الكل رياء ؟!

متى ننقذ أنفسنا من وهدة الخنوع والتمرغ فى مستنقع السلطة !..

حتى نخرج من صف المنافقين الراكعين !

أى قيمة لحياة لا تنبض بالكرامة !

هل تساوت العقول المبدعة مع العقول الخاملة ؟!

استرق نظرة نحو المحافظ فالتقطت عيناه صورة مقيتة للزهووالابتهاج .

هئ له ان عاصفة تهب حول رأسه المشحون بالاستنكار والدهشة.

من جديد رأى المحيطون بالمحافظ يرشقونه بنظرات عدوانية كأنه ارتكب فى حقهم جرما !.. ولمح معهم نظرة المحافظ الجهمة ووجهه العابس ، وهو ينظر تجاهه !

استشعر الخطر !

تأكد ذلك الشعور لديه حين رأى هناك مخبرا سريا يرمقه بعين يكمن فيها الشر .. بينما يضرب ذيل معطفه بخيز رانته ضربات متتابعة موحية !

هل تستباح الكرامة بطريقة ما ؟

التفت خلفه فارتطم بالوجوه المقطبة تحاصره . .

غاب فى تأملاته ... ليس لمشقف مثله ان يجهل معرفة ما يدور حوله ويفهم مغزاه ويكتشف مراميه وأبعاده ... الآفة بل المحنة المدمرة تقديس الأشخاص لدرجة التأليه !

بدا الفكره انهم - هؤلاء الذين يرى الليلة نموذجا أسيفا لهم - سجنوا أنفسهم فيما تصوروا - وهما - انه الأصح والأنفع ! .. فلم يبق الا الارتماء الكامل فى حضنه دون الاهتمام بمدى اخلاقياته ومبادئه

واخلاصه لهم وأمانته .. والعمل على بناء المستقبل الأفضل والأرغد ..

توهموا النفاق لترضيته والرضا عنهم .. دأبوا على المداهنة والتملق والتقرب من السلطان ، وهو راض بينهم مستمتع مزهو !. داهسين الكرامة وعزة النفس والاحساس بالقيمة الانسانية ..

تحول فى تأملاته يرصد الخضوع والتفخيم المستفز .. القاب مقززة وصفات يخلعونها عليه تثير الامتعاض والغيظ والتهكم !

انفض السرادق فى وقت متأخر من الليل ... وكان هو فى آخر الموجة الأولى التى افسحوا لها الطريق تضم المحافظ ورجاله .. وكان يحس كما لو أن أحدهم سيزيحه بعيدا عنهم !

وقف على مبعدة منهم ... ركب المحافظ سيارته التى تريثت لحظات ليسمع هتاف أهالى القرية بحياته ! .. وانطلقت به ومن خلفها السيارات الثلاث تحتشد بمن فيها ..

اختفى الركب المهيب مغادرا القرية ! ..

ظل واقفا ينحسر من حوله الزحام حتى خلا المكان وساد الظلام.. اجتاحه خوف طاغ .. ولم يغادر مكانه ..

الكل عميان .. الصامتون والمتحدثون فى سباق الزيف والضلال من لم تبصر عيونهم غيره ـ الذى حاد عن الطريق وانشق عن الصف ـ ترميه بالنظرات الناقمة .. كعدو بغيض !

غاصوا فى شهوة المنصات ومكبرات الصوت .. ودوى التصفيق استحسانا لمواهب النفاق ! .. كان لابد أن يكذبوا ويراؤوا ارضاء للسيد ... وللقفز بغير قدرات !

حول وجهه حزينا غاضبا تجاه البيت الذى انطفأت انواره ... والثورة تغلى فى أعماقه ..

استبدلوا بك الآخر يا سيدى !

تبددت ذكراك رمزا لمرحلة شامخة فى تاريخ مصر ..

ضاع صوتك يا صاحب المبدأ والموقف والنضال فى غابة الانحناء والانبطاح !

غابت اشراقة النور الذى صنعته فى قاع القماءة والتصاغر !

توقفت الحقيقة مذهولة أمام طغيان الرياء !

ذابت القامة العالية فى سيولة النفاق كأنما ليس لها غير التراب الذى تثوى فيه ! .. فهل أذن الظلام المحيط ألا يأتى وقت الوفاء لكى لا نباد لك وفاء بوفاء . ونحن الآن نجنى ثمار زمانك !

تعددت صور النفاق فى مواجهتك ، وأقاموا السدود أمام الحق ، ليعلوا الباطل !

لم يقيموا لقيمة الفكر وزنا .. ولا لمن اشقاه حال الوطن وهموم الأمة اعتبار !

أجزاء من اعطى لوطنه أن يساق الى مقبرة النسيان ؟!

انتهت المهزلة يا سيدى .. وأسدل الستار .. ولم يبق غير الخوف .. يتلبسنى !

انتبه إلى سيارة «الميني باص» الواقفة قرب بيت الراحل .. ورأى بعضهم يصعد إليها .. أدرك انها لابد ذاهبة الى المدينة ..

تقدم وصعد معهم ...

ظل فى صمته ..لا يلتفت لأيهم .. السيارة تقطع الطريق المظلم..

كان يختلس من وقت لآخر النظر حوله متوجسا ليرى هل ثمة من يرقبه فى مقعده .

توقفت السيارة عند قصر ثقافة المدينة .. غادرها ركابها .. نزل خلفهم ..

ألفى نفسه يقف وحيدا على الرصيف الخافت الضوء .. لا يدرى أين يذهب فى هذه الساعة المتأخرة .. والبرد قارس .. والشارع الواسع يخلو من كل شىء بعد أن انطلقت السيارة الخالية فى طريقها الى وجهتها ..

استشعر قليلا من الأمان فى هذا الجو الساكن والشارع الخالى لابتعاده عنهم .. لكنه ود ان يخرق السكون ما يبدد وحدته ..

فوجئ بأحدهم يتقدم نحوه قائلا :

ـ استاذ خالد ! .. تفضل .. أنا فى انتظارك لتذهب الى الفندق ..

اعترته الدهشة .. همهم بكلمة لم يتبينها !

الم تصل الرجل التعليمات لتجاهله ؟

مشى الى جانب الرجل فى الشوارع الساكنة مسافة طويلة ..

كان ينتابه احساس بأن ثمة من يتعقبه ليبطش به .. وكان دون وعى يحبس مترقبا انفاسه كأن هناك من يتنصت عليه !

اتكون ضيافة جبرية ليسهل اصطياده !

كان باب الفندق مغلقا .. طرقه مرافقه .. فتح العامل الباب ، وكان يغالب النوم ..

قال الرجل بلهجة آلية :

ـ الغرفة المحجوزة للمحافظة !

ـ تفضل ..

تهالك منهكا على حافة السرير .. وكان يسمع صوتا فى أذنيه كالطنين ..

سمع طرقة على الباب فوثب على قدميه مفزوعا ..

ـ من ؟!

ـ العشاء ..
ـ لا .. شكرا !
كان مبحوح الصوت .. واكتشف انه منذ الصباح لم يتناول طعاما .. لم يرد أن تفلت منه لحظات الأمان القليلة مادام الباب مغلقا !
انطرح على السرير مستلقيا على ظهره بكامل ثيابه .. نسى أن يخلع الحذاء ، برغم ألم قدميه المحبوستان فى الحذاء طوال الساعات .. ظل مفتوح العينين يحملق فى الحائط المقابل ..
كان يشعر بحصى تحت جسده يخز جلده .. لم يتقلب كأنما يخشى أن تسمع حركته !
اهو افتراس نفسى من نوع مبتكر ؟!
لم يكد ينبثق ضوء الفجر الباهت من خصاص النافذة .. حتى وثب واقفا .
خرج الى الطريق الخالى ..
أهناك من يتربص له فى مثل هذا الوقت ؟
تمنى لو ازدحم الطريق بالبشر حتى لا يسهل التعرف عليه !
ود لو يركض ليختصر المسافة المجهولة ..
ظل سائرا يتخبط فى شوارع المدينة التى لا يعرفها ..
ألفى نفسه بعد وقت طويل وسط سيارات الأتوبيس .. انقذف بين صفوفها .. سمع هدير المحركات للتسخين قبل الانطلاق ..
القى بنفسه داخل احدى السيارات .. قبع فى المقعد الأخير ..
لن تهدأ نفسه حتى تنطلق به السيارة ، لتذهب الى أى مكان ..
فلا يهمه إلا أن يخرج من المدينة ..

المفتـــون

كنا نراه فى شوارع الحى يلبس البذلة الوحيدة ذات صفى الأزرار .. محبوكة حول جسده النحيل .. والطربوش مائل على جانب الرأس فى أناقة ، يتطاير زره الأسود فى الهواء .. وجه متصلب .. عينان متجهتان للأمام .. لا يلتفت لنداء ايهم مهما تعالى نداؤه ..

نعرف انه يتقمص شخصية «محمد عبد الوهاب» فى زيه ومشيته الوئيدة ، حينما كان يسير على كورنيش المدينة فى فيلمه « الوردة البيضاء » الذى شاهدناه فى ثالث عرض له بمدينتنا المنصورة ... نختار الدار التى تعرض الأفلام بعد الدور الأخرى بأشهر ، لمشاهدتها بتذكرة رخيصة !

يتبارى رفاق بداية الشباب فيقولون انهم رأوا « نادى » بالأمس فى الشارع خارجا من بيتهم فى الحى يعلق معطفا قديما على ذراعه ربما كان معطف ابيه البائع الجائل ... محزونا ينقل قدميه فى تثاقل كأنما لا يقدر على السير ... نقول : تماما كعبد الوهاب فى فيلمه « دموع الحب » وهو يدخل البيت الذى بناه لحبيبته قبل هجرها له ... يغنى حزينا يائسا « ياما بنيت قصر الأمانى »

كنا مولعين بمشاهدة عبد الوهاب فى فيلمه « الوردة البيضاء » ... نتساءل فى براءة : لماذا أهدت الحبيبة لحبيبها وردة بيضاء ؟ .. لماذا لم تكن حمراء أو زهرة بنفسج ؟! يقول احدنا : الوردة البيضاء رمز الصفاء والنقاء .

حين شاهدت مع نادى فيلم « دموع الحب » أول مرة وامتلأنا بالشجن لسماع أغانيه وللقصة الرومانسية المؤثرة .. ظل نادى عند خروجنا من دار العرض منتشيا هائما يردد اغانى عبد الوهاب .. متمنيا أن يقرا القصة الفرنسية «ماجدولين» التى اخذ عنها الفيلم ..

وكنا فى الطريق الى البيت عندما لمح نادى القصة المترجمة الى العربية معروضة بين الكتب عند البائع الجالس على الرصيف ، فاسرع في فرحة يلتقطها ، وقال :

ـ اشترها لأقرؤها .. وأردها اليك !

كان جيبه خاليا من النقود كما عهدناه دائما ..

كنا نستمع فى دهشة الى نادى يتحدث عن اعتلال قلب عبد الوهاب واستبداله بقلب من الذهب ! .. ويعود فيقول إنهما الرئتان اللتان زرعتا له من الذهب .. الا ترون كم هو طويل النفس فى غنائه !

كان لامر يبدو ساذجا للغاية .. لكن نادى كان يردد قوله دائما لحملنا على تصديقه .. رغبة منه فى نسج شىء من خياله حول عبد الوهاب الذى يعشقه .. ولأن بيتهم كان خاليا من جهاز الراديو شأن بيوت الفقراء جميعا ، كان يهرع الى المقاهى ليستمع الى غناء عبد الوهاب فى أجهزة الراديو .. وكان يتكلم فى حسد عن بيت العائلة الثرية فى اطراف حي ميت حدر التى تنعم بغناء عبد الوهاب فى اسطوانات الفونوغراف .

كان يبدو لنا فى زيه ومشيته الهادئة ، ووجهه يتجه الى الأمام يمد عينيه كالمأخوذ ، دون لفتة هنا او هناك كالفراشة الحالمة .

رأيناه أحد الأيام يلبس المعطف الحائل اللون ، رافعا ياقته .. عارى الرأس .. يزحف بقدميه حزينا .. يتوقف على جانب الطريق .. محنى الرأس .. يكسوا الشقاء وجهه ..

قال أحدنا :

ـ ها هو عبد الوهاب واقف على بوابة القصر ليلة زفاف حبيبته لغيره فى فيلم الوردة البيضاء» ينوح مغنيا : «ضحيت غرامى عشان

هناكى . وكان نعيمى كله هواكى» .

أتأمل نادى رابطا بينه وبين مشهد الفيلم .. يجنح بى الخيال الرومانسى فتدمع عيناى !

كان ابناء حى ميت حدر يقولون عن نادى : تلبسه عبد الوهاب ، فلم يعد لشخصيته وجود !

حتى اهله باتوا لترضيته ينادونه : « عبد الوهاب» .. فهو وحيدها .. يجدون فى منحه الاسم الذى اختاره لنفسه اسعادا له !

حينما يسهون مرة منادين باسمه ، أو يزل لسانهم بحكم العادة بتلفظون كلمة «نادى» يتملكه الغضب ويمتنع عن الأكل .. يرتدى بذلته المحبوكة الازرار وطربوشه ، وينفلت من الباب خارجا ويصفقه خلفه ساخطا !

ادركوا تماما ان «نادى» لم يعدله وجود بأية صورة .. وان بقى لونه وهيئته ماثلا أمامهم فى كل الأوقات !

كنا نشبهه بقيس بن الملوح الذى بلغ من شدة حبه وهيامه بليلى ، ان سدت عنه ابواب العالم والدنيا ، فلم يرغيرها فى الكون حتى قيل عنه كان لو نظر الى الوحش يقول ليلى . وان نظر الى الجبال يقول ليلى . وان نظر الى الناس يقول ليلى .. حتى اذا قيل له ما اسمك وما حالك ؟ يقول ليلى !!

وبات الظن الغالب عند شباب الحى أن اسمه الأن «محمد عبد الوهاب» .... وغاب عن أذهانهم الاسم القديم ، الذى عرفوا به ابناً من أبناء حيهم !

كان يرافقنا فى «مدرسة المعلمين» لعامين ونصف العام . انقطع بعدها عن الدراسة فيما كان مقبلاً عليها بحماس ، متطلعاً لمهنة «المعلم» فى المدراس الإلزامية .. كنا نراه فى كل صباح مسرعاً يسبقنا على الطريق

بين حى «ميت حدر» وحى « الحسينية » الذى تقع فيه المدرسة ، كى لا تفوته دقيقة فى درس الحصة الأولى .. حتى فاجأنا ذات يوم بالشخصية التى انتحلها سادراً بإصرار فى الطريق التى رسمها لحياته ! .. كأنما كان القصد والمنتهى والجائزة الكبرى لأعوام الدراسة والإجتهاد الدراسى ! .. مما أثار لدى الحى كله الدهشة والإستغراب ! .... ينتظرون فى تعجب لمن بات منكفئا على الداخل ليعيش بشخصية أخرى .. يلتف ببعضه ويغفو على ذراع معشوقه وينام فى سريره ! .. متخليا عن شخصيته التى عرفوه بها منذ وجد بينهم ....

وصار عجيبة من العجائب تحت أبصارهم .. لا تنتهى غرائبها !

نحن نحب عبد الوهاب بأصالته وعبقريته ، ولا نستطيع أن نستمتع بحياتنا من دون فنه الجميل .... لكن لا نريد مهما بلغ الحب والإعجاب أن يذوب واحد منا إلى درجة مرضية فى شخصه ، ويتحول إلى صورة كاذبة لا تمثل فى وجداننا أدنى شبه للصورة الأخرى التى أحببناها بشدة واكبرناها منذ وعينا الحياة ! .... ولا تمثل لنا إلا مظهرا نهزأ منه ونستنكره !

كنا فى مرحلتنا العمرية تلك ، لا نشعر فى نظرتنا للأمر بشىء من المبالغة أو الغلو ، أو اعطائه حجماً أكبر ! ... وكان يملؤنا اليقين بسلامة موقفنا فى تقديرنا لمسلك نادى ومشهده المثير عند البعض للغرابة والإندهاش .. وعند البعض الآخر السخرية والإنتقاد !

وعلى هذا النحو كان تعاملنا نحن رفاق نادى فى العمر ، وفى الدراسة سابقاً وإن كان محدوداً ....

وكان طبيعياً إزاء ذلك ألا نعتبر انشغالنا بأمر نادى مستغرباً أو تفاهة عقل فينا ! ... وفى أبسط مفهوم تدخلا فيما لا يعنينا .. ودس أنوفنا فيما لا شأن لنا به .. واعتراض غير مستساغ على تصرف لا

يعجبنا ! .. ومحاولة حجر على حرية انسان وحقه فى اختيار ما يراه ملائماً لشخصه ! ... فهو كان بالنسبة لنا ابناً من ابناء حينا الو دعاء أهله البسطاء المحبين بعضهم البعض .. المتآلفة قلوبهم .. نعتز به وندفع عنه ، ما استطعنا ، أى مكروه !

كان ثمة شباب من أهل الحى بدأوا يهزأون منه .. ويرمونه بألفاظ مقذعة .. يرونه مستمرا فى مشيته وزيه الذى عرفوه عنه مؤخرا ، لا يأبه بهم .. فيشيعونه بمزيد من الشتائم !

كنا نتساءل كثيرا .. نستخدم مفاتيح الأسئلة وملحقاتها .. دون أمل فى الإجابة ! .. يظل الجدل دائراً .. ينتقد البعض منا فيقول أننا نسأل فقط للثرثرة والمماحكة واللاجدوى ! .. يتملك البعض الآخر الضجر والتبرم : ليس فى هذا الأمر ما يبعث على الدهشة ، ولا يجب أن يعنينا بأى حال ، ويستأهل الوقوف عنده والإنشغال به حتى لدقائق ! .. ليفعل نادى ما يشاء حتى ولو كان تافها مادام يؤمن به ، وإن كان على غير حق !

يتمادى آخرون فيشيدون «بشجاعة» هذا الشاب .. الذى سبق غيره من محبى عبد الوهاب ، فابتكر ما لم يفكر فيه الأخرون ، غير مبال بإنتقاد الناس واستهزائهم به !

نستهجن هذا الكلام فنرد عليه ساخرين : كأنه لم يبق إلا أن تريدوا منا أن نصدقه ونهتف له ونصفق معجبين مؤيدين !

لم نره مرة يجلس فى مقهى .. أو يقف عند بائع للشراء ، أو يدخل دكانا .. فهو لا يتصور أن يتعامل عبد الوهاب مع باعة أو أصحاب متاجر .. فبالتأكيد هناك من يشترى له أشياءه ..

يرسم فى خياله صورة بائع فى متجره ، يجد أمامه عبد الوهاب يطلب سلعة ما .. سيقف البائع أمامه جامدا لا ينطق ولا يبدى حراكا ،

غير مصدق أنه يرى بعينيه عبد الوهاب بشحمه ولحمه داخل متجره !

يقينا كان نادى يعيش بغير اهتمامات أخرى غير مارسمه لذاته وكنا نشعر بالاغتراب عن محيطه .. كما أنه من المؤكد أننا لن نجد عنده القبول العاطفى الإنسانى لانشغاله «بحياته» التى أختارها راغبا لنفسه !

ومن خلال مسلكه كنا على يقين من ان شخصيته تذوب فى الشخصية الأخرى ، مما لا يهئ له بحال استرداد شخصيته الأصلية وتحرره مع عشق الذات الثانية ويرمم بنيان حياته المتصدع بفعل انفصام الشخصية الذى صنعه بمحض إرادته .... ورغب فيه بكل ذرة فى كيانه !

وحملنا الإهتمام بنادى على اللجوء إلى تقمص شخصية المحلل النفسى لاستقراء الأبعاد النفسية والطموح الذاتى ! وتفسير الدوافع التى قادته إلى هذه الحال ! ... تساءلنا هل ستظل شخصيته متهاوية داخل الدائرة التى دخلها فلا يستطيع الإفلات منها ؟! أكانت له شخصية سابقة نجهلها لم يرض عنها ضاق بها ، فآثر الأنعتاق منها بالتحول إلى الشخصية «النموذج» فى اعتقاده؟ ... واصطبغت بها تصرفاته ؟!

نذهب إلى ابعد من ذلك وتتشعب تساؤلاتنا وتتكاثر وننشغل بها. كأنما هو - نادى - المحور الوحيد فى حياتنا وليس غيره !

فى بعض الأيام كان نادى يبدو متعب الوجه وأكثر نحولاً وكنا نعزوا ذلك إلى المعاناة التى يعيشها لإثبات ذاته أو بالأصح ذات عبد الوهاب التى فنى فيها ! ... هل بإمكانه أن يحقق الانسجام فى علاقته النفسية وبالناس ، بعدما تنكر لشخصيته وعاش بالشخصية الأخرى ؟

كان التساؤل يدور فى الحى من حولنا : من أين يتعيش وهو بغير عمل .. وأبوه الكادح بالكاد يتكسب قوته يوماً بيوم ؟... أى مستقبل ينتظره وهو يضيع عمره فى الوهم ؟ ماذا يفيده في الاندماج المرضى فى شخص عبد الوهاب ؟

كان يخيل ألينا أن ملامحه تشكلت بملامح عبد الوهاب فبات يشبهه تماماً !

وأدهشنا أن ما نشاهده لا يصل إليه خيال !

كان هو الوحيد فى المدينة الذى أطال سوالفه كسوالف عبد الوهاب التى ظهر بها فى فلميه ...

يوماً رأيناه ، يحمل العود فى جراب وردى جديد .... واتسعت دهشتنا : هل حقاً يعزف عليه ؟ ومتى وأين تعلم العزف ؟ من أين جاء به وهو بلا مورد يساعد على شرائه ؟

بدأنا نجده هناك عندما نرتاد حديقة «شجرة الدر» ممسكاً بالعود ، يختار لجلسته الركن الشرقى فى الحديقة لبعده نسبياً عن بقية الأركان .. «هل سيغنى؟ ... لمن سيغنى بينما هو متباعد عن الناس هكذا ؟ »

ترتفع عجيرته بأغنـــية عبد الوهاب «حسدونى وباين فى عنيهم من عطفك وحنانك ليا . وعذابى فى هواك يرضيهم وياريتك بتعذب فيّا .... »

وفى شجن يغنى : «لما أنت ناوى تغيب على طول . مش كنت آخر مرة تقول » .. بدا أنه يحفظ الكلمات ولحنها .. فيما كان صوته القبيح المنفر لا يجتذب رواد الحديقة للاستماع إليه .. ولكن بدافع الفضول المقترن بالدهشة تظل أعينهم مشدودة نحوه .. وابتسامة الاستهجان والسخرية على شفاهم .

يدور بينهم الكلام الساخر مغالين فى القول : أنه فى حاجة إلى جرعات من الطعام والأمصال لعلاج قبح الصوت وتصحيح المسار لضربات العود ، التى لا تعبر عن شئ ولا تصدر عنها نغمة ؟ ... يمعن البعض فى المغالاة الفكهة ! ،، عليه أن يعلن فى بيان على أهل المدينة ،، خطاب اعتذار ،، عما يسببه لهم من إزعاج وإحباط وشعور بالخيبة ، ونفور من الغناء وسخط على المغنيين ! ....

كان واضحاً أنه يغنى لنفسه ... لا يعنيه أن يستمع إليه الناس .. ينهض واقفاً بعد انتهاء الأغنية .... يعلق الريشة فى رقبة العود ويغلقه فى جرابه ... يزرر سترته ويحبكها حول جسده ... يمشى بالطربوش المائل على جانب الرأس ... والوجه المشدود إلى الأمام .... يشيعونه بقولهم : مسكون بهوس شخصية عبد الوهاب ... نشفق عليه ! ....

لا يركب أتوبيس المدينة الواقف عند باب الحديقة بخمسة مليمات ، ليذهب إلى بيتهم فى الحى البعيد .. يظل سائراً على قدميه فى شارع البحر الممتد كأنما يخشى أن تفلت منه ساعة يمشيها مشية عبد الوهاب !.

لم يكن موقف الرافضين لنادى والمنصرفين عنه تيئيسه من ممارسة الغناء ،...ونزع الأمل من قلبه ... فقبح الصوت والجهل بالعزف على العود لا يدع مجالاً لوهم تحقيق الذات فى فن الغناء .... حتى لو كان ينشد حقاً أن يصبح مغنيا تسمع له بذلك إمكاناته وموهبته ... فهو لم يستهدف لنفسه العاطلة عن الموهبة سوى أن يكون فحسب نسخة من عبد الوهاب الشخص بيقين أنه لا حياة له بغير أن تكون شخصية عبد الوهاب محورها !

كانت رؤيتنا للتواصل المفقود بين نادر والآخرين يبعث فى نفوسنا شيئا من تهيب الاقتراب منه بعد تحوله .. ومحاولة مصادقته من جديد كابن من أبناء الحى .. فهو غائب عنا باغترابه ، مختزلا حياته فى شخص معبوده !

كان أحدنا يجرب موهبته فى كتابة الأقاصيص الساخرة ويقرأها لنا .. فى أقصوصة صور نادى متربعا فوق جبل عال .. تحمله رياح شديدة وتهوى به آلى السفح .. وأطلق على الأقصوصة «الرياح الغاضبة » .

يمض يفسر لنا مغزى الأقصوصة بأن بطلها صعد إلى أعلى الجبل وجلس على قمته .. دون أن يفعل ما يؤهله للجلوس فوقها ، مما أغضب الرياح فأزاحته عن الموقع الذى لا يستحقه !

وفى أقصوصة أخرى يلبس البطل طرطورا .. ويمتطى صهوة حصان أبيض جامحا ،، يتوقف به أمام مبنى كتب على بابه «دار العقلاء» يلكز بطن الحصان بمهمازيه فيكسر الباب المؤصد أمامه ، ويهدم جدران المبنى .. يسقط السقف فوق ممتطى الحصان فيسحقه .. بينما يفر الحصان خارجاً يحمحم : إنى برئ .. إنى عاقل !

يضحك الرفاق .. بينما كنت أكتئب !

عندما تعرض بعض شباب الحى لنادى فى شارع البحر بعيداً عن الحى .. يقذفونه بالطين الذى يلتقطونه من حافة النهر يلطخون وجهه وطربوشه وبذلته التى يظهر بها فى مشيته المعروفة ! ... استوقفناه فى أعقاب ما حدث عند باب بيتهم نبدى الأسف لما وقع له .. ننقل إليه مشفقين كلام الناس عنه ونظرتهم له .. آملين فى إخلاص وصدق أن يعدل المسيرة ، ويتخلى عن مسلكه الذى لا يجلب غير المتاعب والإهانات .. ، ويلحق بشخصه السخرية والنيل من الكرامة ..

والمعايرة بالتبطل وأزدراء كونه راضيا لنفسه فى هذه السن إعالة والده الفقير له ! ... فضلا عن العبثية التى يعيشها ويرتضيها .. وضياع سنوات العمر فيما لا يفيد !

كان يبدو محزونا .. غير أنه ألتفت ألينا بجانب وجهه ، بينما وضع أحدى قدميه على عتبة بابهم يهم أن يولينا ظهره ! .. فى هدوء قال :

ــ ما شأنهم بى ... ! يتعرضون لخصوصيتى فيما أفعل .. ماذا يضايقهم ؟ لماذا ينشغلون بى ؟! أليس هذا تدخلا فى حريتى ؟ لماذا لا يدعون لى أيامى أعيشها كما أريد ؟ ما يرونه عيباً فى شخصيتى أو حتى شذوذا ، ليس الا شرف ومجد !

بينما كنا نحملق فى وجهه بكثير من الدهشة هز رأسه يقول فى رصانة القولة المأثورة : «الناس دائما أعداء ما جهلوا » ! .. نقل قدمه الأخرى إلى عتبه البيت منتشيا ..

عدنا يملؤنا شعور بالتعجب : معتوه بلا شك ! .. سيظل بافتنانه بشخص عبد الوهاب دائرا حول نفسه لا يتوقف !

قال أحدنا متهكما : ذاك تواضع منه أن رد علينا .. ولم يدخل بيتهم ويتركنا كالشحاذين على بابه !

ــ طبعا .. تفضل علينا . أنه « عبد الوهاب » عظيم القدر !.. فمن نحن بالنسبة إليه الآن !

عاد الأول يقول ساخطا :

ــ ماذا يظن نفسه ؟ آمن عنبر هو ونحن من طين ؟!

نتساءل : من أجل ماذا يجعل من شخصه أضحوكة بين أهل الحى ؟ .. أى شىء يجبره على هذا المسلك ؟ .. ما وقع له اليوم

سـوف يقع له مـرات بعد أن ضـاق به الناس .. لمـاذا يظل غارقا فى عناده ، يغوص يوما بعد آخر فى قاع التفاهة التى خلقها لنفسه ؟ ماذا سيجنى من وراء ذلك ؟ ماذا يرجو منه ؟ أى هزل هذا الذى يمارسه ؟ .. أهو نوع من الخبل داهمه فجأة ؟ أى حالة من العبث هذه ؟ استثمر موجة من إعجاب بعض الصبية به .. لإعجابهم أصلا بعبد الوهاب ليستمر فى سلوكه غير مبال بكلام أهل الحى وتعليقاتهم الساخرة .. وجعله محورا لأحاديثهم فى كل مناسبة ؟!

وبدالنا إننا نحن الغائصين فى قاع التفاهة حتى أذ قاننا لاهتمامنا بنادى وجعله «قضية» تشغل تفكيرنا وتخيم على مظاهر الحياة فى حينا !!

هل نحن بلهاء !؟

لكن ظل اهتمامنا بنادى يحملنا على مراقبة تطور «الحالة» لديه وتعمقها فى داخله .. وبالتدريج احتجاب أسمه فى الحى وراء عبد الوهاب لا يجب أن ينادى بغيره ! .. الجميع لا يراه فى الطريق بغير مظهره الذى أتخذه لنفسه دون تغيير وبات مألوفا عندهم .. والمشية الهادئة الحزينة التى يرونها لعبد الوهاب فى فيلميه !

تسلطت على فكره واستأثرت بخياله الشخصية التى فتن بها ليله ونهاره لافكاك منها !

وبدا لنا بل تأكد مع هذا أن أهل نادى راضون بالشخصية التى تدثر بها وربما مشجعين عليها ! .. مما أثار تساؤلاتنا التى لم تكن تنقطع .. المقترنة بالدهشة : لم ؟ كيف ؟ من أجل ماذا ؟ أى منفعة يمتطيها ؟...

ولا نجد إجابات .. وتتملكنا الحيرة .. ويبدو الأمر بلا معقولية ..

وظللنا نقف بين باب الترجيح والظن .. !

وكنت يوما أتحاور عن نادى مع صديق جاء لزيارتى فى البيت تدخل أبى مفتش التعليم ، مبديا اندهاشه من انشغالنا بمسألة كهذه ! .. لماذا نوجه تفكيرنا إلى سفا سف الأمور وترك ما هو أعمق وأجدر بالتمعن فيه ! .. لماذ نغالى فى موقفنا من الشاب ، وافتعال مشكلة لا أساس لها ، من دون أن نخجل من تفاهتنا .. وقال إن الإنسان ـ أى إنسان ـ حر فى تصرفاته .. يعيش كما يريد .. ما للناس وماله مادام لم يلحق الأذى بأحد .. ولم يعتد على حرية الغير .. ولا يسبب مشاكل لإنسان .. يجب أن نعترف لنادى بهذا الحق مهما بدأ مسلكه غريبا فى نظرنا .. فهو لم يأت بعمل شاذ إلا لمن أراد أن يراه كذلك ! .. أننا نهاجمه وهو أختار الصمت أو اختاره الصمت ! .. ولا ندرى لكم من الوقت يستمر هذا ..

شارك شقيقى طالب الأزهر فى الحديث يقول :

ـ يجب أن يضع العقلاء من أهل الحى حدا لهذا الجدل العقيم حول نادى ، وكأنه لا شغل لهم غيره !

وخاطبنا أنا وصديقى قائلا

ـ ليتكما والآخرين تقوموا بدور لإعادة التوازن إلى عقل صاحبكم الذى تهتمون بأمره .. لكى يشفى من الهوس ! ... فهو يدير حياته بالأوهام وليس بالحقيقة ، لبعدها عما يمارسه !

ومضى يقول أنه يعيش حياة ذات وجهين ليرضى ذاته ! . وليس له دون ذلك أمل يرام بعد انغلاق أبواب الأمل أمام عينيه .. ليكون شخصا ذا شأن !

عقب صديقى يقول فى آسف :

ـ كان يحلم بدخول الجامعة .. وكنت أقول له ، أنه أمل ، وليس

أسهل من الأمل ، ولا أصعب من تحقيقه ..

قلت :

ـ كان يجنح به الحلم فيردد أنه سيدخل الجامعة وحتما سيدخلها ! ولا ندرى كيف يتأتى ذلك !

أضاف صديقي :

ـ قلنا له ناصحين : تعقل ! .. لا تعش في الوهم حتى لا تصاب بانتكاسة نفسية ! .. تأمل ظروفك الصعبة التى لن تؤهل لك بحال ما تطمح إليه ! .. يجب أن تعيش على أرض الواقع .. دعك من هذا الحلم! .. يقول : الأحلام حق لكل البشر .. أجمل شىء أن تحلم ..

يزيد في إصراره وتحديه :

ـ سأدخل الجامعة رغم أى شىء ..

كنت وحدى أعرف سر إصرار نادى على دخول الجامعة مع استحالة ذلك ، بعد أن كان لا يتطلع لغير مهنة التدريس في المدارس الإلزامية .. أعرف حبه لطالبة فى الثانوى ، من حى «توريل» الذى يقطنه الأسر الراقية .. أبنة محام معروف فى المدينة يترافع أمام المحاكم المختلطة .. رأيتها مرة .. رائعة الجمال .. ترتدى رداء المدرسة الكحلى والقميص الأبيض .. ينسدل على وجهها خصلة من الشعر الأسود الفاحم .. من أجل أن يكون جديرا بها وعدها أن يصنع المستحيل ليدخل الجامعة .. كان يتكتم قصة حبه عن الناس حتى لا يثير سخريتهما ..

كان يضعنى فى موضع خاص من قلبه .. كاشفنى بالقصة وأشفقت عليه ، فحتى لو تحقق حلم الجامعة المستحيل ، هل سيرضى والد الفتاة بابن بائع جائل زوجا لابنته ؟.. وحين كانت تقع عينى على

اللافتة المعلقة على مكتب والد الفتاة فى شارع المختلط الراقى .. «الأفوكاتو» .. كنت أتساءل فى آسف : أى جسر يمكن أن يمده نادى بينه وبين تلك التى أحبها ؟! .. يزداد إحساسى ببعد المسافة بينهما حين أرى فى الصباح والد الفتاة فى طريقه للمحكمة المختلطة، يرتدى البذلة الكحلى الراقية والطربوش .. يسير بخطوات وئيدة واثقة ووقار، وخلفه موظف المكتب يحمل حقيبة الأوراق ورداء المحاماة الأسود ...

كنا فى حيرة نتساءل : هل يزهو نادى بتقمص شخصية عبد الوهاب ليعوض نقصا نفسيا ؟ أم أنه يتصور نفسه عبد الوهاب ذاته بشهرته العريضة وتفرده وبإعجاب الناس متوهماً أنه يحقق طموحات كان يأملها فى صورة أخرى، أعجزته الظروف عن بلوغها ؟

وقال شقيقى منهيا كلامه :

ـ لعل نادى بما يمارسه الآن يحاول ـ دون وعى ـ أن ينعش حياته الخاملة !.. أنى أشفق عليه فى الحقيقة من الانشطار النفسى الذى يعانيه بين حياة يختبئ فيها بشخصية وراء الشخصية الأخرى التى خلبته بروعتها ونبوغها ! .. ولم تترك مساحة من العقلانية ! .. وأخاف أن يظل فى خبله حتى يقف على حافة الانهيار !

أخذت استشعر تعقد المشكلة بالنسبة لنادى، واستحالة تغيير العقلية التى تسيطر عليه ..

كان يقول عن عبد الوهاب أنه ساحر للمصريين ! ساحر جرئ بعبقريته !

فى بادئ الأمر، كان يروى لنا أحداثاً وأموراً بالتأكيد كان ينسجها من خياله حول عبد الوهاب، ويتصرف بطريقة تثير الدهشة والاستغراب .. ولم يتبادر إلى مخيلتنا أنه سيتحول إلى تلك الشخصية

يغيب بعقله فيها بطريقة أمسكت بعقولنا ومشاعرنا .. وقادتنا إلى تساؤلات وإنشغال بال ..

غلبنى التفكير فى أمر نادى أتصور : ليس أمامه حال إقصاء تلك الفترة من حياته ، غير مسيرة صعبة وعسيرة لاستقامة الطريق .. وبلوغ سن الرشد ! .. ويصبح فى وسعه اتخاذ قراره فى ظل مرحلة التعطل والظروف العامة الصعبة التى تعيشها البلاد دون عائق من معوقات الماضى ! .. فهل سيحدث ذلك فى القريب ؟!

أثارت تصوراتى مشاعر عديدة متناقضة .. وتمنيت لإراحة أنفسنا لو أن الأمر لم يأخذ هذا القدر من الأهمية ! .. لو أننا نظرنا إليه ببساطة !

انتبهت على صوت أبى يقول بعد انصراف شقيقى :

ـ ما أعيبه حقا على هذا الشاب تركه نفسه بلا عمل يتعيش منه .. ويعينه فى طريق المستقبل ..

عندما بدأت نظرتنا تجاه نادى تأخذ شكلا آخر .. فلم نعد نهتم بأمره إلا قليلا وانشغلنا .. بشئوننا ، وانصرفنا عن التفكير فى شخصه .. لم نعد نراه فى الحى ..

قالوا : طرده أبوه بعد ما ضاق بتعطله .. ويئس من إصلاح حاله ..

وقالوا : فارق الحى لا يدرى أحد أين ذهب ..

قال بعض أهالى الحى : ليس المهم أين ذهب لكن المهم ألا يعود .. حتى لا يصدع أدمغتنا بالتفكير فى تصرفاته الخرقاء !

أنضم إليهم الكثيرون يتشفون فى نادى الذى كان مثار إزعاجهم زمنا ببدعته !

نالت سهام التشفى أصدقاءه الذين كانوا يميلون إلى سلوكه

الغريب لشدة إعجابهم بالشخصية التى ألبسها لنفسه !

إلى هذا الحد كان أمر نادى شاغلا للناس ، مقلقا لهم ؟

* * *

يوم التحقت بالتدريس في مدرسة إلزامية بقرية مجاورة .. رأيته فى حى «الحوار» عصر اليوم ذاته ..

كان يدرج بدراجة عارى الرأس .. يرتدى بذلة موزع التلغرافات بأزرارها النحاسية المفكوكة .. يعلق فى مقود الدراجة حقيبة البرقيات الجلدية المربعة ذات السيرين .. يتوقف عند المتاجر الكثيرة فى الحى وأبواب البيوت . يلتقط البرقيات من جوف الحقيبة ليسلمها لأصحابها ..

لم يرنى ..

ولم يفتنى لمحة يأس وانكسار فى وجهه ..

عبرت بى لحظة انفعال قاسية ..

تناهبتنى مشاعر مختلطة من الألم .. والأسى ... والرثاء ..

العبث

كنت عائد لتوى من عيادة الطبيب ، ابدأ فى خلع ثيابى لأستلقى على السرير مجهدا .. بعد انتظار طويل فى زحام العيادة .. كنت جوعانا انتظر لقمة العشاء التى تعدها ابنتى .. تأخرت أكثر من المعتاد .. على الطعام كانت صامتة .. مترددة فى الافضاء لى بما يكدرها ..

حين جاءت كريستين جارتنا تشكو ابنتى أدركت ماذا هناك :

- زينب ضربت فيكتوريا وشتمتها وهددتها ..

حنت ابنتى رأسها فى ألم :

- تعايرنى دائما بأنى عانس .. لا أحتمل هذه الكلمة !

شاركت ابنتى ألمها .. أشحت بوجهى عن كريستين دون كلمة .. تشابكتا تضرب كل منهما الأخرى بعشوائية فوق الرأس والكتف .. كنت أحس قسوة الضربات .. وألم صرخات إحداهما.

- لاذنب لى فى العنوسة أيتها الخنزيرة .. انت تذبحينى كلما رأيتينى بهذه الكلمة ! ... سأحطم وجهك القبيح !

تململت كثيرا مهموما آسيا ..

عندما رأيت ابنتى الهزيلة الجسد تتهاوى أمام الضربات وتسقط على الأرض .. انتفضت ناهضا .. أتلقف فيكتوريا بين ذراعى فى غضب .. « تستضعفينها ياخبيثة .. أما كفاك إذلالها بالكلمة السامة !» .. أضغط على جسدها الممتلىء بكل قواى كانما أريد سحقها .. بدأت كفاى تضرب صدرها النافر وتكشط ضلوعها .. كأنما اصفى دمها من تحت جلدها ..

حين ترنحت موشكة على السقوط أفلتها .. كان ثمة دم يعلق بكفى ، أحسست سخونته وارتعبت لمرآه ..

من أين جاء ؟ لماذا حدث ما حدث ؟ انتابنى الهلع .. كنت راقدا على الفراش لا أزال .. متى غادرته ؟ أهو كابوس يقظة ثقيل ؟

وكان الحزن يسكننى لأجل ابنتى ..

اشـــتهاء

عندما أرسلني أبى الى دار الحلاق لأحضر له الموسي ليزيل شعر العانة كما يفعل أهالى القرية .. كنت طوال الطريق قلقا مخافة ان تشى بى عنده زوجته لفعلتى التى فعلتها فى الظهيرة .

اخترقت الطريق الطويل الخالى المحيط بالقرية ، يقوم على جانبه صف أشجار الكافور .. لتأخير انزال العقوبة المنتظرة !

لا ستغراقى فى القلق لم انتبه الى الأشجار المقطوعة الملقاة على طول الطريق .. التى كنت التقط من تحتها الكئوس الخضراء الدقيقة لألهو بها .

منذ بدأت زوجة أبى تحلب اللبن من البقرة التى جاء بها أبى الى الدار ، وهى تختزنه فى الطواجن لتبيعه لنسوة القرية ، اللاتى يجئن للدار فى طلبه .. كما تضن علينا ببيض الدجاج الذى يملأ باحة الدار لتبيعه أيضا .. فتستولى على جانب من نقود اللبن والبيض قبل ان يأخذها أبى .. يدسها فى حافظته الجلدية ذات الثلاث طيات بعد أن يعطينى بعضها لأشترى له الأفيون .. ويعيد الحافظة الى جيب صديريه القطنى .

فى ندى الصباح الباكر كنت أقف على باب الزريبة بمخلاتى المدرسية ارقب زوجة أبى تحتوى بين أصابعها الناشفة ضرع البقرة .. فيتدفق اللبن نازلا فى الطاجن الواسع .. تحمله ممتلئا وتعبرنى فى وقفتى دونما كلمة .. تدلف الى قاعة الفرن لتدخل الطاجن فى الخزانة الطينية وتغلق بابها الخشبى المربع .

لم أكن قريبا من أبى لتباعده عنى منشغلا بزوجته بعد رحيل أمى . لم أعرف الشكوى من شىء لغياب من أوجه اليه الشكوى .. فى

الظهر تسللت الى القاعة المعتمة .. مددت يدا مرتجفة الى باب الخزانة الواطئة السقف ففتحته .. أدخلت رأسى من الفتحة الضيقة .. تناولت أحد طوابق اللبن بين يدى ، أنظر إلى طبقة القشدة التى تغطى اللبن .. هويت بفمى فى الطاجن متلهفا اجرع من تحت طبقة القشدة كيلا احدث فجوة ، محاذرا الا أزيد عن ثلاث جرعات .. حتى لا ينقص الطاجن كثيرا فتكتشف زوجة أبى فعلتى ..

أعدت الطاجن إلى مكانه وتراجعت ساحبا رأسى من فتحة الخزانة.. اسرعت أمسح من على فمى أثر اللبن ..

كنت ملتذا بما شربته .. لكننى كنت فى خوف للعقاب الذى ينتظرنى .. لو علم أبى بالواقعة .

حومت حول زوجة أبى فيما كانت تجلس أمام الطست تغسل الثياب .

جلست بقربها اتطلع إلى وجهها لأرى أثر فعلتى كأنها علمت به !.. أسأل نفسى هل ستشى لأبى !.. انصت إلى وشوشة رغاوى الصابون فى طست الغسيل .. اقارنها خائفا بطاجن اللبن .. متوهما فى سذاجة أن ثمة وشوشة فى الطاجن الذى جرعت منه سوف تسمعها زوجة أبى فتكتشف جريمة السطو .

مر النهار الذى قضيته مهموما بدون أن يقع شىء .. فلم اتلق العقوبة التى ظلت تهجس فى داخلى !

ايقنت أن زوجة أبى لم تفعلها ..

امتننت لها كثيرا .

سوف أفعلها مرة بعد مرة كلما اشتهيت شربة اللبن .

غير أنى فى الصباح أسفت ونقمت على زوجة أبى .. عندما رأيت باب القاعة لأول مرة مغلقا بالمفتاح !

لحظـــة

كنت ضيف زميلى القديم فى العمل ... لقينى فى المدينة الصغيرة ودعانى لقضاء ليلتى فى بيته ..

على عشاء الطبلية القديمة جلسنا .. الرجل والزوجة والولد الصبى .. وأنا ..

بينما كانت تضع الزوجة قصعة الشعرية الفلاحى أمامنا .. كنت أتأمل الصبى الجميل القسمات .. أتذكر يوم حملت إلى بيتهم القلة المزركشة التى جاء بها أبوه ليلة سفرى من المدينة الساحلية بعد أن انهيت بها مهمة العمل .. بينما كان زميلى لم ينته بعد من مهمته ..

قال سعيدا وهو يسلمنى القلة انها لسبوع مولوده : وليتك تعطيها لأمه مصحوبة بتمنيات السلامة »

مددنا أيدينا بالملاعق للطعام ..

وأنا أنظر إلى الصبى قلت مبتسما :

ـ أين كان هذا الصبى يوم السبوع !

هز أبوه رأسه :

ـ السنوات تجرى ..

تنهد :

ـ وما أسرع الزمن !

أردف يحثنى على الطعام :

ـ هل أعجبتك الشعرية ؟

قالت زوجته :

ـ اشتريها من الفلاحة فى السوق ..

قلت معلقا :

ـ انها طيبة المذاق ..

قال الرجل وفمه ممتلئ بالطعام :

ـ كل بالهناء والشفاء ..

كان الصبى صامتا يمسك بملعقته لا يمدها للطعام ..

رمقه أبوه باستغراب :

ـ ماذا هناك .. لماذا لا تأكل ؟

اشاح الصبى عن القصعة .. تمتم فى تذمر مكتوم تحرجا لوجودى:

ـ ثلاثة أيام غداء وعشاء .. أليس هناك غيرها !

حنت أمه رأسها صامتة ويدها ممدودة للطعام ..

رمى الصبى الملعقة من يده على الطبلية ساخطا ..

قاومت الاحساس بالمرارة .. قبل أن أهم بقول شىء يناسب اللحظة .. هوت اللطمة الشديدة على قفا الصبى النحيل :

ـ تتمرد على ماذا .. على فقر أبيك ؟!

كان الصوت غاضبا حانقا .. لكنه لم يخل من نبرة انكسار ..

منجـــد

دائما كان يشكو لى .. يشكو كثيرا ..

زوج أمه وسوء معاملته له ولأمه المريضة .. وقسوته ..

يعيش مع أمه وزوجها بعد رحيل أبيه فى صباه .. رقيق الحال .. نشأ فى أسرة طحنها الفقر ..

كنا صديقين ندرس سويا فى مدرسة المعلمين بمدينتنا المنصورة .. طامحين فى مهنة التدريس بالتعليم الالزامى السائد آنذاك ..

كنت مولعا فى أوقات الفراغ بقراءة روايات ارسين لوبين وشرلوك هولمز ورو كامبول البوليسية ..

يلومنى منجد :

— دعك من هذه التفاهات .. لا تشغل وقتك بها ..

— لكنها روايات من الأدب البوليسى .. تشحذ الذهن .. وتبعث على التفكير ..

— مجرد تسلية !.. خيال محض لا ينتمى إلى الواقع يحبكه مؤلفوه بمقدرة .. لكن الحوادث الحقيقية هى التى تنشرها الجرائد .. تجرى فيها المعاينة لمكان الجريمة والتحقيقات الجنائية للكشف عن الجانى واصدار الحكم عليه ..

— لكنك لا تجد فيها عنصر التشويق والمتعة والإثارة التى تجدها فى الروايات البوليسية ..

يهز منجد كتفيه :

— لك هوايتك ولى هوايتى .. على أى حال أنا لا أقدر على شراء تلك الروايات ..

قلت :

ـــ يمكن أن أعيرها لك ..

ـــ لا تهمنى !

كان يستهويه قراءة صفحة الحوادث فى الجريدة التى يشتريها كل صباح بخمسة مليمات .. يرصد جرائم القتل ويحللها ويوجد لها التعليلات التى ترضيه .. ويستنبط النتائج ودوافع الجريمة التى لم تشر إليها الجريدة !.. والتفسيرات التى أجد بعضها منطقيا والبعض الآخر عكس ذلك !

فى قلب الشتاء لا يرتدى غير قميص رقيق لا يحمى جسمه النحيل من قسوة البرد .. يتركنى بين الحصصى ليجوب فناء المدرسة الواسع ركضا ليستدفىء !

لم يكن فى مسلكه ما ينم عن الاحتياج .. وان كان مظهره فحسب ينبىء برقة الحال .. فلم يكن من عادته التطفل على أحد .. أو التطلع إلى ما فى أيدى الآخرين ..

فى الصباح أقابله فى الطريق إلى المدرسة شاحب الوجه يسعل بشدة .. ساخطا يقول ان الرجل الأنانى ـ يقصد زوج أمه ـ استولى لنفسه على غطائه الصوفى ليضيفه إلى غطائه .. سحبه من فوقه أثناء النوم تاركا أياه يقضى الليل بدون غطاء ونوم فى حجرته الباردة !

لم أره يوما يحضر معه شطيرة طعام ليأكلها أثناء النهار الدراسى الطويل ..

اتقاسم معه ـ بعد الحاحى الشديد ـ شطيرتى ..

فى كثير من الأيام يروغ منى وسط الطلبة حين يلمح فى يدى الشطيرة !

يفاجئنى بقوله :

— لن نذهب غدا إلى المدرسة ..

— لماذا ؟

— سآخذك معى إلى محكمة الجنايات !

— محكمة الجنايات ؟!

أرددها بدهشة يخالطها الخوف :

— انها قريبة لنا من حى الحسينية الذى تقع فيه المدرسة .. فهى مجاورة لبيتنا فى البحر الصغير !

— ماذا يهمنا من القرب أو البعد !. ماذا نريد من محكمة الجنايات ؟!

يردد فى اغراء :

— سنرى مكرم عبيد باشا سكرتير عام حزب الوفد .. يترافع فى قضية قتل !

أردد مستغربا ومتعجبا :

— مكرم عبيد باشا بذاته ؟!

— طبعا .. فسوف ترى البلاغة وقوة الحجة والإستشهاد بآيات من القرآن فى المرافعة .. وهو المسيحى !

ابدأ فى التجاوب معه :

— من أين عرفت ؟

— سمعت كثيرا عن مرافعاته كمحام أمام المحاكم ..

يستثير فضولى بكلماته ..

لم أكن اعلم أنه سيستمر مغرما بهذه الهواية .. حتى فاجأنى بعد فترة بقوله :

— سأريك غدا صبرى أبو علم باشا .. الذى يشغل الآن منصب

السكرتير العام لحزب الوفد .. سيترافع في محكمة الجنايات !

ــ في قضية قتل أيضا ؟!

ــ طبعا .. اتريد من صبرى أبو علم باشا أن يترافع في قضايا غير قضايا القتل !

كنت قرأت في الصحف عن انشقاق مكرم عن حزب الوفد لخلاف حاد وقع بينه وبين رئيس الحزب مصطفى النحاس باشا .

قال منجد معلقا :

ــ خسارة !

أقول معترضا :

ــ هل ستنشغل أيضا بالسياسة ؟

عندما أسس مكرم عبيد حزبا جديدا سماه حزب الكتلة ، هز منجد رأسه في غير اقتناع :

ــ بقاء مكرم في حزب الوفد مكسبا كبيرا له وللحزب !

حين اصدر مكرم عبيد كتابة المسمى « الكتاب الأسود » طاعنا في نزاهة مصطفى النحاس المتطهر ، لتصرفات زوجته المشيرة لشبهة استغلال النفوذ .. ردد منجد في استياء وأسف :

ــ سقطة لن يغفرها التاريخ لمكرم .. ما دفعه لهذا إلا لأنه موتور! .. كيف وبهذه السرعة يسئ إلى زعيم الأمة متجاهلا مواقفه معه واعتزازه به وتقديمه له على غيره من أعضاء الحزب ؟؟.. منتهى الجحود والغدر وخيانة العهد ..

ظل مشغوفا بحضور جلسات المحاكمة في محكمة الجنايات .. حتى بعد انتهاء دراستنا بمدرسة المعلمين .. والحاقنا بالتدريس في المدارس الإلزامية بالقرى المجاورة لمدينتنا ..

كان دائم الشكوى عندما نتقابل في المدينة لسلوك زوج أمه اتجاهه .. واستبداده به واستمتاعه بإيذاء أمه رغم مرضها .. وزاد عليه محاولاته المستمرة للاستيلاء على راتبه ، الذى يخصص جزءا منه لطعامه وتحسين مستواه المظهرى .. واعطاء أمه الجزء اليسير الباقى لشراء الدواء ..

يتمنى بخياله أن يرى مكرم عبيد وصبرى أبو علم يترافعان فى محكمة جنايات المدينة !

يقول انه لو شاءت الأقدار أن يرتكب جريمة قتل ..

اقاطعه مستنكرا :

– جريمة قتل ؟!

– فرضية ربما لا أستبعدها بحسب الواقع والظروف !

– إنك تقلقنى !

يستمر :

– لو وقع ذلك فسأتمنى – ولو أنها أمنية بعيدة التحقيق – ان يترافع عنى مكرم عبيد باشا أو صبرى أبو علم باشا !.. سيرأفان بحالى لأنهما أصلاء !.. لن يتقاضيا من فقير مثلى أتعابا ..

– انك تخرف !

يستطرد :

– سيكون لى الفخر والشرف .. ولو حكم على بالإعدام !

لم أكن أدرى أن ثمة جريمة قتل ستقع بعد أيام قليلة .. تصيبنى بانسحاق نفسى .. يقدم فيها منجد إلى محكمة الجنايات متهما بخنق زوج أمه حتى الموت .. !

أثقـــــال

مضت سيارة الأجرة تنهب بهم الطريق إلى المدينة الكبيرة ..

كان يجلس جوار أخته التى ينتظرها العريس هناك لليلة الزفاف ..

قال الرجل الجالس فى المقعد الأمامى جوار السائق ، انه جاء ليصطحب العروس ، بديلا لعريسها شقيق زوجته ... وسيقيمون ليلة الفرح فى شقتهم لاتساعها ..

وبعدها ـ يعرف ـ أن أخته ستنتقل إلى بيت قديم متعدد الحجرات التي يسكنها آخرون .. تسكن احداها ..

اخته صامتة لا يدرى ماذا يدور فى رأسها .. أغلب الظن انها سعيدة بليلة فرحها .. فالأفراح فى حياة مثيلاتها قليلة ..

واحدة هى من أخواته الثلاث ، يتعلقن برقبته منذ صغرهن ... وحده الشجرة الظليلة .. وان كانت غضة قليلة الأوراق .. بعد ان اقتلع الموت الشجرتان الكبيرتان ..

عاد ينظر إلى أخته يداخله الألم .. ليس غير ثوبين من الحرير الصناعى فى عز الشتاء ، لم يدفع بعد أجر حياكتهما ، حملتهما معها .. فما كان فى الوسع أن يأتى بثياب من الصوف ..

حين خلا البيت من الغرباء ، بانتهاء الحفل الصغير .. لم يزايل الكرسى الخيزران فى ركن الصالة الواسعة .. ينتظر دعوة أيهم له للنوم .. تخايله نظرة واحدة من المدعوات كانت تجلس بالقرب منه ... نظرة اشفاق طويلة اهتز لها .. الفقر مظهره كانت .. أم ليتمه الباكر والحمل الثقيل .. فهى بدت كأنها تعرف ! .

قبلها وجد نفسه يقترب بلا إرادة من الحجرة التى دخلتها أخته مع رجلها وانغلق بابها ... وقف وسط نساء قليلات كن يتسارعن لاعطاء نقود للراقصة التى فرغت من رقصها .. ومدت يدها للواقفات تحصد

«النقوط» وتلقى بنظراتها نحوه فى انتظار عطيته ..

ارتجف بدنه مضطربا حين رأى عيون النسوة ترقبه ، لتحثه على العطاء !.. لم يتوقع مثل هذه اللحظة التى يجهلها ولم يحسب حسابها ..

مد يده إلى جيبه فى تردد وبرودة تشمل جسده .. فستنقص أجرة العودة بالقطار ..

مرت بعدها لحظات طويلة قبل أن يتجه خاطره إلى بيع ساعته فى الغد ..

انحدر رأسه مستغرقا فى مشاعره .. هزت كتفه فى رفق يد صاحب الفراشة الذى يلملم كراسيه ليحملها إلى دكانه .. نهض تاركا له الكرسى ..

ادخلوه الحجرة التى كانت تتكدس بالنساء والرجال منذ أول الليل .. وأغلقوا عليه الباب ..

عرف انها مكان نومه ..

خلع ثيابه وألقاها على أحد المقاعد .. تمدد على البساط القديم الذى يحمل آثار الأقدام الكثيرة .. توسد ذراعه لينام .. لا بأس .. مادامت أخته تتهنأ الآن مع رجلها ..

زوّجها باحساس من فرغ من مهمته معها .. لعلها تنعم بمعيشة أفضل ..

سيفرغ لأختيه الأخرتين .. سوف تجدان بعد ما خف الحمل قليلا حياة تختلف عن سابقتها .. فربما توافرت لهما عيشة أرحب ..

أستغرب أن يسمع نقرات على باب الحجرة بعد وقت طويل .. ترى ماذا هناك ؟

قام متوجسا يتحسس فى داخله مشاعر قلقة مبهمة ..

فتح الباب .. أمامه تقف ابنة صاحب البيت .. تمد له يدها بوسادة صغيرة .. وتستدير دون كلمة ..

نظرة خطفتها عيناه فى عينيها ..

غلبه النوم والعينان تخايلانه ..

لم يرها فى الصباح ولم يجرؤ داخله أن يسأل أين هى ؟

دعاه أبوها ليقضى معه بعض الوقت فى متجر أخشاب الشجر الذى يمتلكه فى الحى المجاور ..

أدرك أنه لا يريد أن يدعه فى البيت .. بين ابنتيه وزوجته .. هناك حول المتجر فى الخرابة الواسعة .. تناثرت جذوع الشجر المقطوعة وقلبها أخضر لايزال .. ظل يتأملها طوال الوقت دون ان يدرى لماذا ..

فى الليل وهو يتهيأ للنوم ، ليغادر فى الصباح .. جاءت النقرات مثل نقرات الليلة السابقة ... ومدت له يدها بملاءه يتغطى بها .. فالليلة باردة ..

همهم بصوت لا يكاد يغادر حلقه :

ــ لكنى لا أشعر بالبرد ..

كان يود أن يستبقيها لحظات ..

صحبت نظرتها بسمة خفيفة .. استدارت دون كلمة .. حاول أن ينام ..

لم يفتح للخيال الحالم بابا .. ينفذ منه ..

ليس لمثله أن يلج فى الحلم البعيد .. لكن آهة أفلتت منه ..

وشىء فى صدره يحتبسه .. كيلا يطفر من عينيه ..

الزفــــاف

في دهشة تسمرت عيناى على وجهه .. حين وقف أمامى يدق على خشبة التذاكر ، لأنقده أجرة الأوتوبيس الذى يقلنى من المنصورة الى مدينة طنطا ..

تحرك من جوارى ليصرف التذاكر لراكب آخر .. ظللت أحملق فى جانب وجهه بدافع من الفضول المقترن بدهشة لا تزال ... لا أصدق أننى اراه بعد السنوات !

لم يتـذكـرنى رغم نظرته لوجـهى ، مثلمـا تذكـرته .. فـمـا كنت بالنسبة له سوى الحلاق الذى كان يذهب إليه من مدينة السنبلاوين الى كشـك مرور أبـو الشـقوق .. ليحلق له ذقنه يوما وليقص شعره يوما آخر ..

كنت انـتقل اليـه راكبـا الأوتوبيس بـدون تذكـرة ، لا يطالبنى بهـا كـمسـريو الخط استـجابـة لطلب مرعى عـسكرى المـرور.. توقيـا للمخالفات التى يكتبها من دون أن تقع ، وتحمّلها الشركة لهم !

تثقل على المشاهد بالأسى والألم ..

كـان مرعى أنيقـا فى بـذلته العـسكرية المـحبـوكـة حـول جسـده المتناسق .. وسيما جذابا .. ساحر العينين ممشوق القوام ..

لم يعـجبـه حـلاقـو أبـو الشـقـوق .. فـجـاء الى دكـانى فى مـدينة السنبلاوين القريبة ، ليتفق معى على موالاته بالحلاقة ثلاث مرات فى الأسبوع ..

كانت مواعيدى معه أثناء نوبات الاحتيـاط ، التى يقـضيـهـا داخل الكشك .. البـاب الخلفى مفـتوح دائمـا عن مكان ضيـق يشـغله لوحان خشبيـان لفترة الراحة مطروحين على حمالين حديدين فوقهما بطانية قاتمة .. وكرسى واطئ من الخشب دون مسند ..

يقابلني مرعي متورد الوجه في جلبابه الابيض النظيف وشبشبه اللامع المغطى المقدمة ..

اضع حقيبة الحلاقة على « السرير » بينما يجلس مرعي على الكرسي ، لابدأ مباشرة مهمتي .

ثمة بيت عالي الطوابق يشغل مساحة كبيرة في جوار الكشك .. أرى فتاة جميلة تطل من أحد طوابقه .. تثبت نظرات عينيها الفاتنتين على مرعي في وقفته على باب الكشك الخلفي .. يبادلها النظرات في حذر وتحفظ ..

تتحول النظرات في احيان الى ابتسامات واشارات بالأيدي .. ألحظ ذلك قبل ان يدخل مرعي الكشك ليسلم لي ذقنه أو رأسه .. يحمر وجه الفتاة حين التفت بدافع الفضول نحوها بينما أمارس عملي .. تنسحب من الشباك ثم تعود بعد لحظة لتطل على مرعي ..

تتوقف يدي عن ضربات المقص .. أقول لمرعي أنافقه :

- ليت الفتاة تكون من نصيبك !

توقعت أن ارى ابتسامة من نوع ما على وجه مرعي .. لكنه همهم بلهجة قاطعة :

- لا احب أن أتعلق بالوهم !

أدركت ما يعنيه .. لكنني تجاهلت أقول :

- لماذا لا تحاول !

في حدة قال :

- أبله ! .. اشتغل ! . . أتريد من هؤلاء الأغنياء ذو الأصل الطيب .. أن يقبلوا لابنتهم عسكري مرور عريان !.. اشتغل !

أسائل نفسي : لا أمل لديه في الزواج من الفتاة .. فلماذا المناورة والمشاغلة ؟ ماذا يريد منها ؟

كان كشك المرور يقع في مفترق طريقي السنبلاوين وبلدة

الحجايزة .. وكنت ألحظ توقف سيارة فارهة قادمة من طريق الحجايزة أمـام البيت الكبير .. تنتظر أحد افراد الأسرة التي تسكن وحدها البيت ، لتقله الى طريق كفر صقر وأبو كبير ..

وكان كونستابل المرور في نوبة زيارته للكشك ينهض لتحية الرجل المهيب في احترام حين يراه خارجا من البيت .

كان باب الكشك الخلفي مغلقا على غير المعتاد وأنا أنقر عليه مرات . . بينما كان زميل مرعي قائما بنوبة الخدمة .. وكان الكونستابل يجلس خلف منضدة صغيرة في مكان يرتفع قليلا على يمين الباب يراجع قائمة السيارات العابرة ويوقع في دفتر المرور .

كنت أسمع حركة خفيفة في الداخل .. وأصواتا هامسة .. بينما انتابتني الدهشة طرقت اذني شهقة حادة .. وصوت أنثوي مكتوم ، اعقبه فتح الباب لأرى في مواجهتي الفتاة ممتقعة الوجه .. وجنتاها مبللتان بالدموع وجسدها يرتعد ... كأنها في حالة الانهيار لم ترني ، راحت تجذب ثوبها عن صدرها بشدة تهم ان تمزقه في يأس .. تردد بصوت كالصراخ لكنه منخفض :

- ماذا اقول لهم ! .. ماذا أقول لهم !

كان مرعي يقف خلفها متغير الوجه ..

أدركت الموقف ، فيما انفلتت الفتاة خارجة لتدلف داخل بيتهم ..

في اضطراب سألني مرعي :

- هل الكونستابل لا يزال بالخارج ؟

لم ينتظر ردا .. ارتمى على الكرسي مهمهما :

- اسرع وانته .. لأتسلم نوبة الخدمة ..

كان ثمة تبدل في الملامح .. وبدا الوجه رغم الموقف حجريا جامدا يحدق في لاشيء ..

لو قالت .. هل يتركونه حيا !

لم يكن ثمة ما يوحى بأن شيئا سيحدث . حين جئت الى مرعى فى المرة الثانية بعد الواقعه ! ..

ساعة ارتفع الصويت حادا فى البيت الكبير ، انتفض مرعى بينما كان حد الموسى على خده فشق جلده وانبثق الدم ..

التقطت قطعة قطن من الحقيبة لأضعها على الجرح .. ازاح يدى وهب واقفا .. نزع الفوطة من على صدره واتجه إلى الباب ..

أكان يستشعر الهاجس بعد ذلك الذى حدث ؟

وقع نظره عليهم وهم ينزلون خشبة النعش عند باب البيت ..

ترنح فى وقفته وقبض بيده على عارضة الباب ليتماسك ..

فى لحظات كان النعش مغلفا بالستان الأحمر ..

خرجوا يحملون الجسد الملفوف بلحاف زاهى اللون .. أودعوه جوف النعش ..

كنت أقف خلف مرعى تنتابنى رعدة آسية ..

تمنيت أن أدرك ما يخالج مرعى فى هذه اللحظة الواهمة .. أهو احساس من يصحو مفزوعا من كابوس مخيف .. أهو الشعور بالرفض للموت .. أهو لفحة الندم .. أهو التمنى ــ المستحيل ــ أن يهب المفقودة شيئا من ذات نفسه لتعود إلى الدنيا .. أهو الذهول والصدمة المروعة أن تلاقى بهذه السرعة النهاية الفاجعة .. تهوى إلى حضيض الموت ، تلك التى ذاق السعادة التى لم يحلم بها بين ذراعيها ..

فعلتها الفتاة واغتالت حياتها بيديها ..

لماذا تعجلت أن تجود بأنفاسها ولا تتقبل الحياة لربما حدث المستحيل ؟!

هل تنقسم مشاعره بين الارتياح لاسدال الستار على فعلته ، برحيلها ، وبين الرغبة فى استدامة العلاقة للظفر بمزيد من السعادة ؟

كان الدم ينحدر من خده المشقوق إلى أسفل دقنه ... وتتساقط

قطراته على صدر جلبابه .. في حين كان جانب وجهه الآخر معتما بالشعر النابت الثقيل ..

بدا في وقفته الذاهلة الجامدة كأن ما يدور أمام عينيه شيء وراء العقل يصعب استجلاؤه !

في لحظات متثاقلة بدأ المشهد ... الصبايا يحطن بالنعش في اردية بيضاء كملائكة .. تحمل كل واحدة بين يديها صينية لامعة تمتلئ نصفها بعجينة الحناء .. تنغرس فيها خمس شمعات مشتعلة ... ظهر الرجل المهيب خلف النعش يستند على عصا ... يزفون العروس الحسناء التي اغتالها الموت بيدها شابة لم تذق طعم الفرحة بزفافها للعريس المرتقب !

عندما حملوا النعش يزين مقدمته وجه جميل ناطق الملامح مبتسم الفم يحيطه اطار كبير مذهب ، شخص مرعي ببصره إلى الصورة للحظة .. انتفض .. انقذف نحوهم وصرخ صرخة طويلة ..

حملق الجميع نحوه لا يعرفون من هذا المجهول !

في قلب العاصفة لم ترعيني غيره : بائس مفزوع ملتاع النفس والجسد .. بدأ انتفاش شعر رأسه وانتصابه كأنما انغرست في جسده انياب الرعب من زلزال داهم ..

صوب الطريق الزراعي المواجه للمشهد انفلت راكضا ... أطلق صرخات حادة متلاحقة .. ذراعاه مرفوعتان أعلى الرأس ينحسر عنهما الجلباب حتى الكتفين .. كأنه يدفع بهما شيئا يحلق فوقه مهاجما !

بدت المسيرة متباطئة لتطيل من ساعة الزفاف .. خلفها النسوة في ثياب ملونة صامتات .. تطبق أيديهن على المناديل الصغيرة البيضاء .. لانواح .. لا عويل ..

في البعيد .. على الطريق المترامي كان مرعي موغل هناك .. وكنت أحس كأني لازال أسمع صرخات لا تتوقف ..

قطرة الحياة

بدت معه كالنحات يدق الأزميل فى الجسد .. ليشكل منه جديدا .. لكنها لا تبذل جهد الذى يخلق الحياة فى قطعة الحجر .. فالجسد حى أمامها .. من ذاته يتشكل فى أيامه الأولى ويتخلق مع الزمن .. تنبض أعضاؤه .. تتدفق فى عروقه الدماء ..

هو المخلوق الذى تشكل فى رحمها وانحدر منه .. تلقفته ذراعها المقوسة .. وسعت به تحمله ساقها الملتوية فى قوة هائلة لم تواتها من قبل ..

« لماذا هجرها الزوج كارها لها ؟»

فى شهره الثالث بدأت تلحظ اهتمامه بما يحيط به .. تعطيه لعبة فتومض السعادة فى وجهه .. تحاول تنظيف أنفه فيدير رأسه بعيدا .. يظهر عليه الاهتمام إذا شعر بقرب الرضاعة .. قمر صغير .. لم تتخيل أن يخرج من جسدها الشائه مخلوق بهذه الصورة ! .. فى حسن الوجوه كلها تتمثله !

كانت واهمة حين ظنت أن رؤية أبيه له ساعة ولادته .. سيبقيه معها .. لكنه ذهب نافرا منها ..

« لماذا رضى بها مع قولها : سيدى عفوا .. فانا لست كأى امرأة .. لماذا تلهف عليها بعدما قالت عفوا سيدى .. دقق طويلا .. أمعن النظر كثيرا .. وخذ قرارك .. أمن أجل مسكنها الصغير ليؤويه ؟».

تقترب منه يوما بعد يوم .. تلتحم به .. تستهويها كل ملامحه .. تجتذبها .. ثمة حياة بدأت تدب من داخلها يوم أحست به فى أحشائها، ونمت واكتملت .. يطيب لها المراقبة !

فى شهره الخامس يبتسم لصورته فى المرآة .. ينظر إلى الأرض إذا سقطت منه لعبته ..

« أين أبوه ؟! .. الوسادة الصغيرة المكسوة بالقماش المنقوش بالزهور الحمراء ، التى كانت تضعها له فوق الوسادة الكبيرة لينام مرتاحا ، لا تزال فى موضعها على رأس مكان رقاده ، لم ينقص منه سوى بوصتين : جسد الصغير »

فى شهره السادس يرفع ذراعية عاليا إذا وجدها تستعد لحمله .. يبدى استياءه إذا أخذت منه لعبته .. يظهر حبه أو رفضه لأنواع معينة من الطعام .. يستمتع بألعابه التى يصدر عنها أصوات .. ودت ، متعجله ، ان تخترق صمته وتستعطفه .. لتسمع من فمه الصغير أولى الحروف .. يأتيها الغد بجديد دوما .. يتخلق ما لم تره بالأمس عينها التى ترقب .. فقط عليها أن تظل متوحدة معه .. يقظة !

فى شهره السابع بدأ يستجيب لكلمة «لأ» .. يبعد يدها إذا امتدت نحوه لتنظف فمه مما علق به من طعام .. يضرب بلطف على صورته فى المرآة .. يضحك من تكرار لعبة معينة أمامه .. يستجيب منتبها لسماع اسمه .. يغلق شفتيه بشدة إذا قدمت له طعاما لا يحبه .. يحاول الوصول إلى الألعاب البعيدة عن متناول يده .. تغنى له وهو جالس فى حجرها .. يتأرجح وجهه الصغير فوق رقبته متعقبا مصدر الصوت .. حتى تستقر عيناه المنفتحتان على وجهها الضاحك .. تثبت حركة وجهه .. تبدو السعادة فى نظرته .. هل انجزت شيئا عظيما أن تلد طفلا دون تدبير ؟!

يدور فى المكان ليبحث عن شىء يثير اهتمامه ..

فى كل حركة ترى حياة جديدة .. تستشعر الوجود حولها صورة

غنية بالألوان .. تقف على حافة عالم زاخر ..

وهى تحتضنه صباح يوم احست بحركة عند باب المسكن المفتوح ..

التفتت فرأته هناك ..

تدفق الدم حارا فى رأسها .. لأى شىء جاء ؟

نبض جسدها انفعالا .. أهناك جديد ؟

دهمها أحساس بانكسار القلب .. أهى بحاجة إلى وجوده ؟

انطوت اللحظة منفلتة كأن شيئا يميتها ..

ادارت وجهها للصغير .. كان نائما على بطنه .. وكان يستند على ذزاعيه ليرفع نفسه ..

لم تغادره عيناها ..

كانت العينان غائمتان بالدموع .. لكن لم يغب عنهما حركة بدت تنبت جديدة ..

حافة الجمر

طوال ساعات العصر كان يدور فى الشوارع المجاورة للبيت .. ملتزما بالمهمة التى كلفه بها أبوه .. فى يده كوز الصفيح الصغير أو علبة السلامون الفارغة .. يملؤها بأعقاب السجائر التى يلتقطها .. عليه ألا يرفع رأسه عن الأرض طوال تجواله حتى لا يفوته عقب منها !

لم يحص الزمن الذى بدأ به المهمة ... فقط يقدر عدد الشهور للسنة الدراسية التى يقضيها فى مدرسته .. لبدء العمل فى نهاراتها عند العصر ... أما بقية الشهور فهو عادة فى الصباح وبعد الظهيرة ..

كان راضيا بالمهمة لا يضيق بها .. ليحقق لأبيه متعة التدخين التى لا يملك ثمنها !

يرقبه دائما جالسا على الأريكة الخشبية يفرغ التبغ من الأعقاب ويلفه بورق البفرة ... ويشعل السيجارة مستمتعًا ..

يتعجب كيف يمكن له انجاز هذا العمل بكفه الواحدة .. بينما تساندها اليد الأخرى المبتورة الكف ..

حين رأى أول مرة رباط الشاش ككرة ضامرة موضع الكف الضائعة، كان صغيرا لا يدرك الأشياء ..

يوصيه أبوه الا يتأخر عنه فى مهمته .. فهو لا يطيق الوحدة .. كفاه الساعات التى يغيبها فى مدرسته .. كما أنه يكون فى حاجة شديدة إلى التدخين !

لم يكن يحدثه عن نفسه إلا حين يمسى الليل .. لا يدرى سببا لذلك ..

على الأريكة فى الصالة الضيقة يجلس فى جواره وساقه مرفوعة يرتكز بكعبه النحيل على حافة الأريكة .. يلملم حجر جلبابه بين كفه وذراعه المعطوبة .. يحكى له عن أمه التى هجرته حين تعطل لإصابته فى حادث سيارة النقل التى كان يعمل عليها ..

— سائقا ولا كل السائقين كنت .. لم يكن يعجبنى أى سائق فى

المدينة .. اتكسب الجنيهات .. انفق منها على المزاج ... وأعطى التباع الذى يرافقنى للانفاق على أمه القعيدة .. أملأ البيت بالخيرات أحملها معى من البلاد التى إسافر إليها بحمولة السيارة ..

تدمع عيناه فجأة :

ـ لم تحتمل أمك الحياة معى .. بعد أن تغير الحال .. طلبت أن اتركها لحال سبيلها !.. وتركتك لى لتفرغ لحياتها !.. لا أدرى أين هى الآن !

يبدأ فى لف سيجارة .. يقلبها فى يده يتأملها قبل أشعالها يأخذ شهيقا له صوت تنهيدة ..

فى أكثر الليالى قبل أن يغلبه النوم على السرير الحديدى المرتفع .. يسمع أنين الأريكة لحركة أبيه المتململه :

ـ كنت سائقا ولا كل السائقين .. لم يكن يعجبنى أى سائق فى المدينة .. اتكسب الجنيهات .. أملأ البيت بالخيرات ..

يشم رائحة الدخان يعبق بها هواء الحجرة قبل أن تنغلق عيناه ..

كان يضربه فى أحيان دون سبب . لا يشعر أنه لا يعمد إلى الضرب لذاته .. لكنه لا يستطيع أن يدرك شيئاً آخر !

كان لا يبكى .. يتأوه فقط .. لم تكن تصدر منه الآهة للتوجع ، أنما كانت للتخوف من الضربة التالية ..

عندما يخرج للطريق يتهيأ له أنه يرى أمه .. هناك فى وسط الشارع تقف كأنما هى فى انتظاره .. قبل أن يبدأ البحث عن أعقاب السجائر ..

يندفع باللهفة ليذهب إليها ..

لكنه لا ينسى أن يلتقط من الأرض الشىء الذى خرج من أجله ..

تعود ساعة الضرب لغير سبب .. وقتها يشحب وجه أبيه .. يمتلئ بالغضب المبهم . يدور مهتاجا فى الحجرة يبحث عن «الزخمة»(١) حتى يجدها .. يهوى بها على الجسد النحيل ..

(١) شريحة طويلة من الجلد السميك مثبتة بالمسامير في طرف قطعة خشبية ..

يحبس الدموع عن عينيه .. يستبقيها في صدره .. حتى يقابل أمه لتراها !

يتركه أبوه ليرتمي على جنبه فوق الأريكة مثنى الركبتين .. ينفث دخان السيجارة ..

لم يكن مناسبا أن يقول له لماذا لا ترد أمي لتعود إلى حياتنا ؟

ترتسم لعينيه كرة الشاش .. وقعدة البيت ..

لمحه زميله ذات مرة وهو ينحنى على عقب سيجارة .. ورأى في يده كوز الصفيح المملوء بالأعقاب ..

طوال الطريق في عودته للبيت راح يردد لنفسه مصدوما ، لماذا هذا الولد بالذات المجاور له في تختة الفصل يراه في هذا الموقف ؟ .. كل يوم يقتسم معه شطيرة الفول رغم جوعه .. يقول أنه سيشترى غيرها في الفسحة ، لايهام الولد أنه يحمل نقودا ..

دخل البيت مستخزيا ترشقه نظرة الولد بالازدراء والاستنكار ..

لأبيه قال متوسلا بصوت كالعواء :

— كيف أذهب إلى المدرسة بعد انكشاف أمرى ؟!

حول عينيه لكى لا يرى غضب أبيه .. وكان يرتجف ..

في الليل تقلب على جنبه كثيرا قبل أن يدير وجهه للحائط .. كيف سيستطيع مواجهة زميله ؟

هل يخرج في الصباح للذهاب إلى المدرسة .. أم لكى لا يعود للبيت ؟

يتملكه الاحساس بان أمه تمثل بغيابها ماضيا بعيدا .. لا يأمل في الاقتراب منه !..

يتشكل في نفسه الوهم حقيقة حينما يدور في مهمته .. والحقيقة وهما !

كان يسمع أنين الأريكة .. ويشم رائحة السيجارة المحترقة والشهيق التنهيدى ..

صوت أبيه يأتي من تحت قدميه الساعيتين وراء أعقاب الطريق :

— كنت سائقا ولا كل السائقين ......

الغد لا يجئ

نزلا من القطار الذى تعطل ... بين المكان والقرية بضعة أميال ..
تلازما فى الطريق الخالى دون أن يعرف كلاهما من يكون الآخر ..
فقط كان يعرفان أنهما فى طريق واحد نحو القرية التى يقصدانها ..
بعد مسافة قصيرة وجد نفسه يشفق عليها من طول الطريق .
سألها ان كانت تحتمل السير تلك المسافة ؟
فى اقتضاب قالت بابتسامة رقيقة :
ـ لا مفر !
قال :
ـ لا أمل بالفعل فى سيارة أو حتى كارو !
ابتسم معتذرا !
ـ عفوا .. للكلمة !
منعت نفسها حياء من الضحك .. واكتفت بابتسامة ..
قالت :
ـ حمد الله أن تعطل القطار فى هذا المكان !
أضافت فى آسف :
ـ سينتظر ركابه كثيرا دون شك ..
قال :
ـ بالتأكيد .
شعر أنه يقترب منها باكتشافه رقة مشاعرها نحو الآخرين ..
حمل عنها حقيبتها بعد تمنع منها .. شكرته فى رقة ..
قال :
ـ مصادفة طيبة ان يكون طريقنا واحدا ..

عقبت مبتسمة :

ـ لتحمل عني الحقيبة !

تحادثا قليلا ..

كانت لهجتها متحفظة بعض الشيء كأنها تخشى أن تشجعه على الإقتراب منها !

الوقت عصرا .. والسحاب يغطي وجه السماء يفرش الأرض بعتمة خفيفة .. والسكون جاثم حولهما .. وكان يخيل إليه انه يسمع هزيم السحاب !

قال ليتسمع صوتها خلال الصمت :

ـ حياة القرية هادئة ..

ـ لكن فيها ما يثير الخيال ويدفع إلى التأمل ..

استشعر فيها رجاحة العقل وفهم الأشياء ..

اغراه قولها ليتواصل الحديث بينهما ..

كان شعرها الأسود الناعم مضفورا .. قال لنفسه : « بالتأكيد يتميز بالطول لو أنها حلته »

ـ تعيشين في المدينة ؟

ـ ليس كثيرا ..

ـ في فترة عيشك هناك .. هل تولد لديك انطباع جيد ؟

صمتت للحظة وقالت :

ـ مللت الحياة في المدينة .. بعدما صرت وحيدة ..

نظر إلى جانب وجهها :

ـ لماذا الوحدة ؟

عادت للصمت لحظات .. قالت :

ـ تركنى ليتزوج من جارتنا .. وسافر معها بعيدا ..

قال فى نفسه : « جميلة مثلها جذابة .. كيف تركها ؟!»

أردفت :

ـ أذهب الآن إلى جدتى التى تعيش فى القرية وحيدة .. لأقيم معها ..

قال :

- أحيانا تكون الحياة فى القرية غير ممكنة ..

ظلت صامتة .. طال الصمت ..

قال يبدده :

ـ عفوا .. أريد أن أسمع منك شيئا ..

لم يكمل عبارته ..

قالت بصوت خفت قليلا :

ـ عن نفسى .. تقصد ؟

ـ عفوا .. لا أدرى لماذا رغبت فى ذلك !

ثم كاتما مشاعره :

ـ قولى ما تشعرين به ..

ـ لكن .. لكننا لم نتعرف على بعضنا بما يكفى لأن أحدثك عن نفسى !

أدرك أنها لاترحب بمواصلة الحديث بينهما ..

وجد نفسه يقول فى جرأة لم يعهدها فى نفسه :

ـ ساكون سعيدا .. أقصد ممتنا لو تكلمت !

نظر إلى جانب وجهها الخمرى .. خيل إليه ان ثمة حمرة خفيفة تمشت فى صفحة خدها .. تحرك قلبه ..

قال يستحثها :

ـ القرية تقترب ! .. هل ...

قالت مقاطعة بصوت منخفض :

ـ يحسن هنا أن يمشى كل منا بمفرده ..

بينما توقفت خطواته مصدوما .. اشارت إلى يمينها :

ـ هذا طريقى لأصل إلى دار جدتى ..

أسرع يقول متعللا بالحقيبة :

ـ لكن الحقيبة .. كيف ستحميلنها تلك المسافة !

ـ لا يهم !

وجم .. نظر إليها متصلب الوجه كأنما باغتته كلمتها ..

لم يجد بدا من أن يشير إلى طريق عكس .. وقال آسفا :

ـ وهذا طريقى !

سار وحده ..

زادت جهامة السحاب .. فبدت دور القرية هناك معتمة ..

خايلته الأخرى هناك ..

كيف يطفئ الشوق ويخمد الحنين الظامئ ؟

« .. ماذا تريد منى ؟ ..

بلهجة من يرجو ويستعطف » :

« .. الحب ! »

« .. الحب ؟!»

« نبرة اللا مبالاة فى صوتها »

« بلهفة الأمل » :

« .. الصحبة والحنان .. هل أجدهما عندك !»

هزة الكتفين والصمت »

« يائسا » :

« .. يبدو أنه لا أمل »

« بوجهها المضئ اطلت عليه تقتحمه بجمالها .. ستفارقه دون كلمة »

« أخفض نظرته عن عينيها متهاوى الإرادة .. النظرة المستخفة أربكته »

« قالت » :

« .. سأجيبك فى الغد »

ولم يجئ الغد ..

جلس على جذع شجرة عريض بين أشجار الكازورينا فى جانب الطريق ..

ليس متعجلا للقاء أمه التى يجئ لزيارتها بين الحين والحين ..

تمنى أن يستطيع قمع الذاكرة .. ودفن ما لا يريد أن يتذكره فى قاعها حتى ينساه تماما ..

والغروب موشك نهض مكتئب القلب ..

توجه بعينيه صوب الناحية الأخرى عبر الطريق الطويل .. ليرى هل توارت هناك .. فى البعيد

كان يرنوا لى غد يجئ ..

هكذا يعيشون

[كتبت عام ١٩٥٨]

هذه البنت صفية .. متى تجئ ؟

طالت جلستى هنا منفردا فى هذا الركن المنزوى من «كازينو أوبرا» فى طابقه العلوى .. وهذه البنت صفية لا تحب غير هذا المكان بكل ما فيه .. هذه الأنماط من الخلق تحبها .. وهذه الأشتات من الناس .. وهذه الأرائك الوثيرة التى تبعثرت عليها الوسائد والحشايا الصغيرة التى لا أدرى فيم وجودها هنا ..

فتيات كثيرات صبغن شعورهن باللون الذهبى ليتوهج فى ضوء الشمس الذى يتسلل من النوافذ .. ضجيجهن حول طلاق احدى الممثلات وملكة القطن فى بهتيم .. !

كل هؤلاء يعرفن البنت صفية ويعرفون طرفا من ذلك الذى بينى وبينها .. وقصة أيامها فى المستشفى يعرفها رفاقى الأدباء هؤلاء الذين يلتفون حول شوقى ليقرأ لهم قصته الجديدة .. وأحزانى وأنا احكى لهم عن صفية التى تأكل العلة جسدها النحيل ، وحاجتى إلى نقود لأجلب لها الدواء وحقن التقوية ..

آه .. ماذا تظن هذه البنت .. اتظن جيبى عامرا بالنقود هذا اليوم حتى تضرب لى موعدا هنا ! .. ليست العشرة قروش التى أدفعها ثمنا لقدح الشراب المثلج هنا دوما فى جيبى على كل حال .. ومن عادتى أن امنح الساقى قرشين أيضا ..

هل نسيت البنت انى مدين لها بجنيهين ونصف الجنيه ؟

أنا قاسمتها أجرها من فيلم ظهرت فيه بوجه «كومبارس» ..

« أدب .. أدب .. إلى اين سينتهى بنا هذا الأدب ! .. نحن

مضيعون .. مضيعون » .

اوه .. هذا الفتى رشدى .. ألن ينتهى ابدا من صياحه هذا الصاخب ..

اتظنين أيتها البنت الطيبة أنت ستصبحين يوما نجمة فى عالم السينما عندنا .. ؟ ماذا تملكين ايتها الساذجة ، .. هل تملكين ردفين وساقين وصدرا يثير الحرارة فى الأجساد ؟ تلك هى المؤهلات «الفنية» التى تفرضها فلسفة الفن فى بلادنا أيتها العزيزة .. فماذا لديك انت غير ابتسامة رقيقة تنبع من نفس صافية .. تحب الناس وتحب الحياة على قسوتها .. وقلب نظيف كبير .. هذه الابتسامة ايتها البنت هى وحدها التى تمضين بها على الطريق .. هى التى تشرق فى ظلام حياتى ..

« هل قرأتم حلقة اليوم من « الطاحونة الحمراء » .. أرأيتم كيف يصور «بيير لامور » ضياع الفنان وبؤسه .. فان جوخ و .. »

هذا الفتى فوزى لماذا لا يخفض من صوته ..

تلك الأيام تذكرينها ياصفية .. حينما انتقلت إلى مسكنى ـ أكان حقا مسكنا تلك الحجرة الرطبة العارية ـ لأنك لم تكونى تملكين حجرة مثلها ! .. آه .. ما اروعها تلك الأيام ايتها العزيزة ! .. عطر الأنثى استنشقه فى الليل والنهار .. وصوت «المرأة» ينسكب فى حسى وسمعى .. وثوبك اليتيم المعلق عند رأس السرير أتأمله فأرى فيه اثرابا لنساء كثيرات تمنيتهن انصبت فيك أرواحهن وأجسادهن الساخنة .. فأحس مع كل ذلك بلذة ومتعة لم أحس بمثلها فى حياتى .. لذة امتلاك الغريب الضائع لامرأة ..

«مالنا والإله الآن .. تكلم عن هذه الحياة »

«اعجبنى قول بوذا : لست أعرف شيئا عن سر الإله .. ولكنى أعرف أشياء عن بؤس الانسان » .

هؤلاء المساكين الذين يعيشون فى محنة أسمها الأدب .. انهم رفاقى .. لكن هذه البنت صفية متى تجئ ؟

وتلومينني يومها ايتها البنت لأنى لا استقر فى عمل أو وظيفة .. ومتى كان ذلك الإنسان الذى يجرى فى دمه شيء اسمه الأدب يعرف الاستقرار فى شيء .. أى شيء .. ثم تلك المرة التى دخلت فيها فصلا فى مدرسة أهلية .. لأعمل فيه مدرسا يدخل جيبه ثلاثة جنيهات فى الثلاثين يوما .. ثم .. وحين صحت فى تلميذ اهمل واجبه ان يمد يده ليتلقى ضربة بالمسطرة .. تلكأ الولد .. فملت التقط يده فإذا بى اقبض على كم فارغ .. كان الولد مقطوع الذراع .. وهربت .. هربت من نظرة طالعتنى بها عينا الصبى .. وجئت اليك يومها محزون النفس .. وهجرت المدرسة فلم أعد ..

« وصاح زافرا : أغلقوا الأبواب .. ودعونى هنا سجينا فلم أعد اطيق أن أرى بؤس الإنسان »

ترى هل انتهيت من قصتك أيها الفتى صبرى ؟

تعرفين ما هو الأديب أيتها البنت صفية ؟ .. تعرفين كيف يعيش هذا الإنسان فى دوامة صاخبة من القلق والألم وشقاء الفكر وعذاب النفس والحس ؟ .. فلماذا اذن كان لومك يومها .. ها أنذا متعطل منذ صرت نزيل القاهرة هنا لأسعى وراء مستقبلى .. كم مرة سمعتك ترددين عبارة لچوبير : ولكى يصل الإنسان إلى مطالع الضوء لابد له اجتياز السحاب » .. آه .. ما أروعه ذلك الأمل الذى تحيينه فى نفسى بعد موات ..

صدقينى يا فتاتى التى تحاول أن تتفلسف فى كثير من الأحيان اننى قاومت الرغبة فى المجئ الى هذا المكان من أجل جيبى الذى سأنزل عليه ضيفا يكلفه احد عشر قرشا .. ولكنى وجدتنى أيتها البنت أرتاد

هذا الكازينو بعدما تفلسفت قليلا لنفسي.. وهكذا أنا دائما ، اتفلسف عندما أفشل فى مقاومة رغباتى لأقنع نفسى. !

ـ الا تقترب منا لتسمع هذه القصة ؟

ـ اوه ..سوف اسمعها فيما بعد !!

الن يدعنى هؤلاء الرفاق فى انتظارى لصفية .. فى صمتى .. فى أفكارى . .اناواحد منكم ايها الضائعون .. اهرب من نفسى الى قلب رحيم يهدهد شقائى ..

«لم يكن لى نصيب من الشعور بالذات وبالكرامة الانسانية .. كنت مثالا للتناقض القائم فى المجتمع بين كسب الرزق وتنمية الأخلاق » .

فى تلك الأيام ـ وما أحلاهابرغم بؤسنا ـ كنت تطلين على بالأمل الكريم كنت مثلا أطل من نافذة هذا المكان على الميدان الكبير .. والخلق يركضون فيه هاربين من المطر الثقيل .. فأعود اليك بوجهى لأقول متبرما :

ـ مطر وغيوم فى السماء .. اكتئب .. اكتئب جدا وأشعر بالضياع ! .. وأرى الوجود مظلما !

تجئ كلماتك تكشف لنفسى عن الأمل الفسيح :

ـ ثم ماذا بعد المطر والغيوم ؟ .. أليست الشمس تشرق فتملأ بضوئها جوانب الحياة !

أطيل النظر الى وجهك بصفائه ونقائه وأبتسم ..

هى فيلسوفتى الصغيرة .. هذه البنت صفية .. لماذا تأخرت !

« أخلاقك ؟ مبادئك .. مثلك العليا ؟ بعها فى السوق وانظر كم تأخذ ثمنا لها ! »

لماذا يصفر وجه هذا الفتى توفيق وهو يقرأ قصته لرفاقة بصوته الذى ينتفض بالاحتجاج.. ترى ماذا يريد أن يقول ؟

تبكين مرة حين أعلنتك انى راحل الى الاسكندرية .. بعدما ضاق عيشى فى القاهرة .. تبكين لتقولين لى : اننى فى حياتك كالمسودة التى تدون فيها قصة ثم تمزقها عندما تصبح فى غير حاجة إليها !

« ماذا فى سلوك هذا المجتمع .. اليست فضائله ظلالا عارضة .. »

لا.. انك لم تكونى كذلك فى حياتى ايتها العزيزة .. لم تكونى كتاب المسودة أبدا .. انك الشيء الذى لا اود لحياتي ان تخلو منه أبدا .. انك الوفاء ايتهاالعزيزة !

كانت ايامنا تلك بائسة أيتها البنت ولكننا على ما بنا لم نكن معقدين قط .. كنت استطيع أن أقول أنى رتقت حذائى المفتوق اليوم بالبساطة التى اقول بها أنى اشتريت حذاء فاخرا .. وكنت تستطيعين ان تقولى : اكلت دجاجة شهية .. بمثل البساطة التى تقولين بها : اننى لم اذق طعاما منذ الأمس .

« تقول لى لا تكتب رحمة بنفسك .. دع هذا العناء الذى اسمه أدب .. كأنها تقول لى لا تعش ! .. كأنها تدعونى الى الموت ! »

آه أيها الرفيق .. حقا ما تقول .. بغير حياتنا التى نعيشها هذه .. نحن موتى .. بغيرها نحيا بلا لذة وبلاغاية .. اجل فالفن كما يقول ماركس أرفع لذة يستطيع الانسان ان يمنحها لنفسه .

سنناضل .. أليس كذلك ايتها العزيزة صفية .. سنناضل بصدق وأمانة وشرف مهما عز علينا العيش ومهما قسا علينا الضياع .. وحسبنا اننا نعطى الحياة اكثر مما نأخذ منها :

آه أريد أن أتكلم كثيرا أريد أن أقول أشياء .. أريد أن اخاطب قلبا .. فأين انت ايتها الحبيبة صفية .. متى تجيئين ؟؟

الطريق الآخر

[كتب عام ١٩٥٨]

دقت في صدرها الفرحة عندما لمحت الصبي يهل على رصيف المحطة وسط الزحام .. أسرعت أليفة نحو اخيها فأمسكت بيده في لهفة ..تجره من بين المتدفقين من فتحة الحاجز الضيقة الى الفناء الواسع ..

قبلت خده في شوق مبتعدة عن الزحام .. بينما كان الصبي يهمهم بكلمات الاعجاب بنفسه كعادته .. اذ قدم وحده من دمياط الى القاهرة . يحمل لأخته النقود التى ارسلت فى طلبها على عجل ..

هتف الصبي حين وقفت به اخته عند محطة الترام :

ـ هل سنركب ؟ .. خذى نقودك اذن وأريحينى !

اخرج يده التي كانت داخل جيبه طوال الوقت .. دفع الى اخته بقطعة معقودة من القماش قائلا :

ـ أمي ربطتها وحذرتنى من فكها .. وأبى أوصانى أن أمسك بها فى جيبى طول الطريق ..

عندما رأى أخته وهو يستقر بجانبها فى الترام ، تهم بفك العقدة صاح محذرا :

ـ لا تفكيها فى الطريق .. ألا تخافين اللصوص !

وضعتها اليفة فى صدرها ..قالت بنبرة أسيفة :

ـ وهل ستبقى النقود معى ! .. سوف تذهب الى صاحب النصيب .. أدرك الصبي ما تعنيه أخته .. سألها :

ـ متى ستذهبين الى ذلك الرجل ؟

ـ الآن على الفور .

أردفت باسمة :

- ستجئ معى ..

شد الصبى من قامته .. أبرز صدره الى الأمام ودقه بقضته الصغيرة :

- طبعا .. انني معك دائما !

داعبت اليفة ذقنه ومسحت على رأسه ملاطفة .. بينما أخذت تستعيد فى ذهنها مكان ذلك البيت الذى ستذهب إليه الساعة .. خايلها وجه الرجل الذى واعدته بالأمس على أن توافيه فى بيته بالنقود ..

رأت نفسها فى اللحظة عينها تخرج من ذلك المعهد الذى تسعى الى الالتحاق به .. لتمارس فى مدارس دمياط عملها كزائرة صحية ..

انتبهت أليفة على صوت أخيها وهو يغمغم آسفا .. لأنه من أجل مدرسته سيرحل فى الغد عن هذه المدينة الساحرة !

جرت عيناها على ملامح الصبى وهو ينظر الى الأماكن والأشياء من حوله دهشا مأخوذا ..وعيناه تبرقان بذكائه وانطلاقه ..

ترى ماذا عنده من خبر أمها وأبيها هناك ، عندما تلقيا خطابها العاجل . الذى بثتهما فيه رجاءها وتوسلها الملحف .. ليبعثا اليها بالنقود ؟

ماذا فعلا حتى استطاعا أن يحصلا عليها ؟

انها ليعجبها حقا فى أخيها ذكاءه واعتداده بنفسه .. وهو - دوما - على حداثة عمره - صديق اسرارها .. ومنه تلقى المشاركة الحميمة الصادقة ..

ساورت أليفة احاسيس مبهمة وهى تقترب من بيت الرجل ..

وخامرها شعور بالرهبة لذلك الذى ستفعله ..

تبدى لها الأمر غامضا غريبا .. يملأ نفسها تهيبا واستنكارا لا

تدركهما تماما . لكم سمعت على حداثة سنها عن أناس ينالون من آخرين نقودا .. لقاء شيء ما .. يحتاجه هؤلاء الآخرون .. والناس يسمون هذا رشوة .. وهى حتى اليوم لا تفهم مدلول هذه الكلمة التى تخفى فى داخلها حقيقة كبرى ولاشك .. ولم تتضح لها معالمها كذلك .. بل انها الساعة وهى قادمة على اتيانها ، تبدو في احساسها اشد غموضا واكثر ابهاما ..

* * *

تنفست أليفة فى ارتياح كبير ..حين فرغت من المهمة التى غمرها اثناء تأديتها طوفان من الأحاسيس والمشاعر ..هبط عليها شعور بالأمن والطمأنينة .. عادت الى نفسها والى اخيها الصبى الذى يسير الى جوارها .. عندما ألقت من يدها قطعة القماش الفارغة .. التى كانت منذ هنيهات معقودة على النقود ..

عاودتها اللهفة الى سماع ماوقع هناك فى بيتهم .. لكنها غالبت نفسها فلم تعلن سؤالها لأخيها الا حين احتواها بيت عمتها .. ودخلا الحجرة الصغيرة التى تشارك فيها ابنة عمتها الجامعية طوال عشرين يوما ..

عشرون يوما كاملة انقضت .. وقبلها انقضى شهرآخر وتبدد هباء فى سفر بين دمياط القاهرة .. تقديم أوراق هنا .. وسعى هناك .. ثم رفض آخر الأمر لا تدرى سببه .. لكن لا بأس .. ففى الغد سوف يقوم الرجل بمهمته فيقبلونها فى المعهد .. وعندئذ سوف تبذل جهدها لكى تحصل ما فات ..

-الماكنة ؟! نبيع الماكنة ؟!

-نبيعها طبعا يا ولية .. ام انك تريدين أن يضيع مستقبل البنت ..

- ألا يكفى بيع الدولاب والسرير !
مضى الصبى يمثل الموقف بطريقته المرحة .. لكن أليفة كانت تحدق نحوه فى ألم يمتزج بالخجل والتأثر ..
- لا يكفى ثمن السرير والدولاب .. انت تعرفين المبلغ الذى طلبه الرجل من البنت .. لابد من بيع الماكنة !
- يا رجل أعقل ! .. الم نذق الويل .. وصبرنا حتي أخذت البنت الاعدادية !
- لا بأس .. نضحي أيضا ..
- عكازنا يا رجل .. الماكنة .. نفرط فيها ؟ .. موسم العيد قادم يأتينا قرشين من الخياطة نصرفه ..
- البنت أولا يا ولية البنت .. انتركها هكذا متحيرة لا تنال هذا ولا ذاك !
تابع الصبى وصفه لما حدث .. وكاد يسترسل لكنه أمسك حين دخلت ابنة عمته .. بينما كانت اليفة تنظر بعيدا بلوح يخيالها أمها بوجهها الشاحب المجهد وشفتيها المزموتين دائما فى جد وانشغال .. وأبوها ذو الهيكل النحيل والشعر الأشيب والوجه المتجعد .. والقدمين العاريتين فى «صندل» أطلت أظافرها التى لونها الزمن بالاخضرار من تحت سيوره التى صنعها بيده من القماش خاكى اللون ..
وباتت اليفة تنتظر انبثاق النهار ..

* * *

مر أمامها اناس كثيرون وموظفون يهرولون داخلين بأوراق هنا .. وخارجين بحقائب من هناك .. وهى فى الدهليز المعتم واقفة لا

تتململ .. عيناها معلقتان بالمكتب الشاغر امامها مغلق الباب تترقب صاحبه الذى طال انتظارها له ..

سمعت اليفة أذان الظهر من مئذنة الجامع المجاور .. فى اللحظة ذاتها دخل موظف حجرة المكتب .. ووراته يدير قرص التليفون وملامحه قلقة مترقبة .. وخرج بعد أن تحدث قليلا وألقى السماعة على عجل ..

لم تتبين اليفة ملامحه جيدا فى عتمة الدهليز .. لكنها حين رأته يدلف الى احدى الحجرات ويخرج منها سريعا برفقة آخرين وجف قلبها .. واستشعرت خوفا مبهما ..

اغلق اكبرهم حجرة المكتب والقى بالمفتاح فى جيبه..

امتلأ الدهليز على الأثر بموظفين كثيرين يتساءلون فى همس ما لبث ان ارتفع .. لكنه لم يصل الي سمعها ..

قصدت اليفة ساعيا كان يقف واجما تستطلع الأمر .. تثلجت قدماها .. سرت البرودة فى بدنها كله ..

هبطت السلم .. ترنحت مرتان ..

وقفت قليلا عند الباب الواسع الذى يفضى الى الشارع تحدق أمامها تائهة ..

تصورت يد الرجل وهى تمتد لتقبض منها النقود .. وعيناه اللتان لمعتا بشيء خلف نظارته السميكة وهو يدس النقود فى جيبه .. ولسانه الذى تطلعت اليه فى لهفة وهو يتحرك داخل فمه .. مؤكدا ان الأمر بات منتهيا . ثم نظراتها الطويلة الى وجه الخادمة الذى بدا مصفرا ينم عن اعياء لا تدرى مصدره وهى تفتح لها باب الشقة لتخرج ..

تبدت لها صورة اخرى .. اليدان وقد سكنتا فلن تقدرا على اتيان

شيء لأجلها .. واللسان وقد توثق فلن يستطيع ان يأمر لها أو يتشفع .. الجسد كله هامد مسجئ هناك .. لن ينهض ابدا ليشغل المكتب الشاغر ..

انداحت في صدر اليفة احاسيس متباينة ..

عندما مست قدماها ارض الطريق احست كأنها في مهب اعصار هائج يجتاحها .. يقتلعها ..

شيء ما استذ لها بفعلة الأمس .. شيء احسته ولم تفهمه ..

عضت على شفتيها بقوة ..ارتعشت في عينيها دمعة كتمتها .. بينما تنازعتها حيرة ويأس أليمين ..

الم يكن ثمة طريق آخر تسلكه ؟ .. لا ريب ثمة طريق لكنها لم تعرفه .. وغيرها كثيرون لايعرفونه ..

اجل هناك طريق آخر .. لكن أين هو ؟؟

المحتـــوى

للكاتب

الرواية :

١ ـ أيام من العمر ١٩٥٤ دار الفكر الحديث .
٢ ـ دماء الوادى الأخضر ١٩٦٧ دار الفكر الحديث .
٣ ـ الأجنحة السوداء (طبعتان) لجنة النشر للجامعيين . دار الفكر الحديث .
٤ ـ الحب فى أرض الشوك ١٩٨٠ كتاب أخبار اليوم .. « كأس القبانى للرواية ».
٥ - هزيمة ملك ١٩٨٤ هيئة الكتاب .
٦ ـ الهشيم ٢٠٠٣ دار النيل للنشر .
٧ ـ الجراد والزقاق ٢٠٥ دار النيل للنشر
٨ ـ منار ٢٠٠٦ دار النيل للنشر

القصص :

١ ـ الحياة امرأة ١٩٥٥ دار الفكر الحديث .
٢ ـ الأيام الضائعة ١٩٥٦ (طبعتان) دار الفكر الحديث .
٣ ـ أرواح وأجساد ١٩٥٨ دار الفكر الحديث .
٤ ـ حب وحصاد ١٩٥٩ دار الفكر الحديث .
٥ ـ الأصبع والزناد ١٩٦٠ المؤسسة العامة للتأليف والنشر .
٦ ـ الأعمى والذئب ١٩٨٠ (طبعتان) دار الأمل للنشر .
٧ ـ العشق فى وجه الموت ١٩٨٣ دار المأمون ـ جائزة الدولة التشجيعية .
٨ ـ حصاة فى نهر ١٩٨٣ هيئة الكتاب .
٩ ـ البحيرة الوردية ١٩٨٣ دار المعارف .
١٠ ـ نزيف الشمس ١٩٨٥ دار المأمون للنشر .

١١ ـ سقوط لحظة من الزمان ١٩٨٦ هيئة الكتاب .
١٢ ـ زائرة الليل (طبعتان) دار الاشعاع . دار النيل للنشر .
١٣ ـ عصف الرياح ٢٠٠٣ دار النيل للنشر .
١٤ ـ شيء لا أملكه ٢٠٠٥ دار النيل للنشر .
١٥ ـ الدائرة السوداء ٢٠٠٥ دار النيل للنشر .
١٦ ـ أقاصيص مصرية ـ هيئة الكتاب
١٧ ـ دوائر الحزن - ٢٠٠٦ دار النيل للنشر .

المسرحية :

١ ـ لعبة الثعالب ١٩٨٤ هيئة الكتاب .
٢ ـ الرقص على الحبال ١٩٨٨ دار الناشر العربى .
٣ ـ حكايات الحى القبلى ١٩٨٩ دار الاشعاع .
٤ ـ الكل عريان ١٩٨٩ دارالاشعاع .
٥ ـ الخندق ١٩٨٩ دار الاشعاع .
٦ ـ احضنوا الشمس المولود المفقود ـ اتحاد الكتاب .
٧ ـ حديقة الحب ٢٠٠٢ دار الاشعاع للنشر .

السيرة الذاتية :

لمحات من السيرة الذاتية : من أوراق العمر ، الكتاب الفضى ـ نادى القصة الجزء الأول .

قيد النشر :

الفوانيس مسرحية
الفأس والبشر ملحمة روائية فى خمسة أجزاء
من أوراق العمر ـ لمحات من السيرة الذاتية الجزء الثانى

دار النيـــــل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شـارع عبده بدران

م. الباشا - المنيل - القاهرة

ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع لدار الكتب

٢٠٠٦/٨٤٨٩

الترقيم الدولى

I.S.B.N.: 977-8488